2271
.40672
.745

2271.40672.745
Jawad
Abu Ja'far al-Naqib.

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072549148

حديث الشهر

الدكتور

مصطفى جواد

أبو جعفر المنصور

Jawād, Muṣṭafā

الدكتور
مصطفى جواد

Abū Jaʿfar al-Naqīb

أبو جعفر النقيب

— ٢ —

﴿ جميع الحقوق محفوظة ﴾

مطبعة الهلال - بغداد

2271
.40672
.745

حديث الشهر

سلسلة كتب شهرية تقدم فى مطلع كل شهر كتاباً

صـــدر منها

مثلهن الأعلى

خديجة أم المؤمنين — للعلامة العلايلي

الكتاب القادم - ٣ -

دعبل الخزاعى

يقـــدمه

الاستاذ جرجس كنعان

يصدر فى مطلع الشهر القادم

ما زال التاريخ الاسلامي من التواريخ المصابة بالجمود ، فهو لم يمحص في كثير من الأمور التي تستحق التمحيص ، ولم يطلق من قيود التعصب البغيض ولم يبحث في ضوء التحقيق والتدقيق ولم يدرس دراسة علمية حيادية ، ولذلك نظر المحققون إليه نظرهم الى الآثار المهملة والمرافق المعطلة ، والتراث البالي، إنه يستوجب الاحترام ولكنه لا يصلح لهذا العصر ، ويستحق العناية والرعاية ولكنه بعيد عن الغاية ، بله أنه لا يزال موضع جدال وموطن نضال .

وإن كتابة التاريخ اصبحت تعتمد على التحري الكثير وحرية العقل والقلم وسلامة التفكير وصدق التحليل والتجرد من الهوى والمجازفة ، والبعد عن التعسف والتخليط ، وليس ذلك بالهين على الحاقد ولا باليسير على الشرير ، ولا بالسهل على الفسل (١) ، ولا هو من المباح في عصور الجهلاء من الملوك ، ولا من الممكن في الشعوب الجاهلة ، ولا سيما الشعوب الشرقية ، فالتاريخ عندها لم ينفك ذليلا عليلاً تصرفه الاهواء وتتحكم به الخرافات ويحدوه التعصب الأعمى

(١) الفسل هو الضعيف العاجز والرذل الرديء ، وحالته تسمى « الفسالة » .

ويود عدوها أن يبقى على حاله (١).

والتاريخ الاسلامي مع حاله التي وصفنا رأى برهاً من الحرية النسبية، كانت كالشبابيك المنيرة لقرارات السجون المالكة، ولم تكن تلك البرهات تترى، وانما كان الزمان يجود بها متى شاء، وما أقل جود الزمان وأكثر بخله!

ونحن إنما يعنينا تاريخ العراق ورجاله وهو من اصعب التواريخ ولا سيما الأدوار الاسلامية، فقد تعاقبت فيها عدة دول وحكمت فيها خلفاء وملوك وسلاطين، مختلفو الاجيال متباينو السياسات، متفاوتو الأزمنة، ولكن أطول الدول عهداً، وأبعدها أثراً، وأقربها الى قلب الاسلام والثقافة، الدولة العباسية، فقد ذاقت هذه الدولة العظيمة حلو الدهر ومره ورفعت أحياناً منزلة العرب ونوهت بالثقافة الاسلامية، وحافظت على المدنية، وبيضت وجه الشرق في عدة مواقف تاريخية، وتركت تراثاً عظيماً من العلوم والفنون والآداب، ونبغ فيها رجال هم كالنجوم في سماء الثقافة، ولا نخشى أن نقول: ونساء مثل فاطمة الكاتبة، وشهدة الكاتبة المحدثة، فتلك

(١) بل يستأجر جماعات للتضريب بين الفرق باسم الدين وأولئك ممن يحترفون بالتعصب.

كانت خطاطة عالمية ، تكتب في ديوان الخلافة العباسية ، وهذه نشرت العلوم في العالم الاسلامي بالدراية والرواية .

وكان عهد المأمون وعهد المعتضد بالله وعهد المستظهر وابنه المسترشد بالله وابنه الثاني المقتفي لأمر الله وعهد المستنجد والناصر لدين الله والمستنصر والمستعصم بالله عهوداً زاهرة للثقافة والعلوم والحرية الفكرية والحرية العلمية ولعل القارىء يستغرب جعلي عهد المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين بالعراق من عهود الثقافة الزاهرة، والحقيقة أن هذا العهد يكفيه شرفاً بين العهود خروج « شرح نهج البلاغة » لعزالدين ابن ابي الحديد فيه ، وصدور « نضرة الاغريض في نصرة القريض » في صدره ، وتأليف الصاغاني للعباب الزاخر ودر اللباب الفاخر ومجمع البحرين في غضونه وأثنائه .

وكان عهد البويهيين من أزهر العهود الثقافية في هذه البلاد ، لاطلاق الحرية الدينية والحرية الفكرية والحرية العلمية ، فخرجت رسائل اخوان الصفا وأسست دار العلم السوارية من انشاء أبي علي بن سوار الكاتب بالبصرة وهي أول دار علم حقيقية واخرى مثلها بالبصرة أيضاً ودار العلم السابورية بالجانب الغربي من بغداد وفي ذلك العهد الف الشريف المرتضى كتابه « الشافي » وهو يمثل ضرباً نادراً

من الحرية الفكرية ، ليس لنا مثله في عصر الدمقراطية هذا ، وكذلك القول في « المغني » لقاضي القضاة عبدالجبار وكتب ابن الباقلاني والماوردي وأبي حيان التوحيدي .

ومن أزهر عهود الثقافة الاسلامية عهد الخليفة الناصر لدين الله الذي ابتدأ في أواخر القرن السادس ، فقد بلغت فيه الحرية الفكرية أن أحد المتعصبين ليزيد بن معاوية وهو عبد المغيث بن زهير الحربي ألف كتاباً في فضائل يزيد فلم يعرض له أحد بشر وألف كتاباً في الرد عليه أبو الفرج ابن الجوزي وهو من أهل مذهبه ، ونظمت في هـذا العهد « القصائد السبع العلويات » وألف ابن الأخضر الحنبلي « معـالم العترة النبوية » وكسدت سوق الذين يحترفون بالتعصب المذهبي الذميم ، وهم شرار الامة قديماً وحديثاً .

وفي ذلك العهد الأزهر لمعت شخصيات من أحرار الكتاب وأحرار العلماء وأحرار الفلاسفـة وأحرار المؤرخين ولا نقول من أحرار الشعراء فقد استعبدتهم الدولة باحسانها فأدخلتهم في موظفيها وصار للأدب مكانـة رسمية ، فالشعر اذ ذاك دعاوة الدولة ولسـانها الناطق ، ومن تلك الشخصيات العلمية الأدبية اللامعة كامل بن أبي الفتح البادرائي ، والحسن بن حمدون ومبشر بن أحمد الرازي

المهندس الفلكي ومحمد بن سليمان السمرقندي ثم البغدادي ، وأبو يعقوب بن اسماعيل اللمغاني الحنفي وأبو محمد اسماعيل بن علي الحنبلي مؤلف « نواميس الأنبياء » ويحي بن زبادة الكاتب وعبد العزيز بن الأخضر الذي ذكرنا أنه ألف « معالم العترة النبوية » وشهاب الدين عمر السهروردي مؤلف « عوارف المعارف » وأبو الفرج ابن الجوزي صاحب التآليف الكثيرة وأبو جعفر يحي بن ابي زيدالعلوي البصري النقيب الذي كتبنا هذا الكتاب في سيرته القيمة .

يحيى بن أبي زيد العلوي النقيب

— ١ —

نبغ بالبصرة في القرن السادس للهجرة بيت من البيوتات العلوية الحسنية ، كانوا يعرفون ببني أبي زيد وأبو زيد هذا هو محمد بن أبي عياش أحمد بن أبي علي عبيدالله بن أبي الحسن علي بن عبيدالله ابن عبدالله بن الحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) .

اشتهر هؤلاء بالعلم والفضل وجمعوا الى شرف السيادة العلوية شرف العلم ، وجمال الأدب ، والبصرة وان لم تكن مدينة علوية الهوى استطاع ان يثور فيها على المنصور إبراهيم بن عبدالله الحسني فقتيل باخمرا (١) وان يخرج فيها على بني العباس باسم العلويين علي بن محمد صاحب الزنج وأول محرر لهم في الشرق ، والعلوي بطبيعته وسياسته يندر أن لا يكون متشيعاً أو قائلاً بالامامة المنصوصة والخلافة الموروثة .

---

(١) باخمرا قرية كانت قرب الكوفة جرت عندها الوقعة بين الجيشين جيش ابراهيم وجيش المنصور سنة ١٤٤ هـ .

وبنو أبي زيد العلويون البصريون كانوا كما يستبين لنا زيديين ، وقد نبغ منهم في أواسط القرن السادس « قطب الدين أبو طالب محمد بن محمد بن محمد بن علي بن أبي زيد المذكور آنفاً » وكان مولده بالبصرة في خلافة المقتدي بأمر الله العباسي وسلطنة ملكشاه السلجوقي ، ونشأ هناك نشأة السادة الأشراف وكان شيخ الأدب بالبصرة أبو محمد القاسم الحريري مؤلف المقامات الخيالية وشيخ الأدب في سواد البصرة أبو القاسم عبدالله بن محمد الحوار زمي المعروف بالكامل مؤلف كتاب « الرحل » وهي المقامات الحقيقية وكتاب « الفصول » في الأدب .

ولعل الشريف أبا طالب محمد بن أبي زيد هذا قرأ المقامات أو سمعها على مؤلفها الحريري ، وللقراءة والسماع على المؤلف شأن عظيم في دراسة القوم في تلك العصور ، وأقبل الشريف على كتب الحديث يسمعها على الشيوخ الثقات ، فقد سمع كتاب « سنن أبي داود » سليمان بن أشعث السجستاني ، وهو من امهات كتب السنة ، على الشيخ أبي علي محمد بن أحمد التستري ، أحد التجار البحريين بالبصرة ، ممن جمع بين بضاعة الدنيا والآخرة ، وذلك أنه كانت له ثروة ومراكب في البحر وحفظ القرآن الكريم وسمع الحديث النبوي

الشريف وكان حسن العقيدة ، صحيح السماع موثوقاً بروايته ـ على ما ذكر بعض المؤرخين ـ توفي سنه « ٤٧٩ » .

كان عمر الشريف أبي طالب ابن أبي زيد عشر سنين حين بدأ بسماع كتاب السنن على أبي علي التستري ولعل هذا الشيخ الثقة مرض في أثناء حضور الشريف مجالسه الحديثية ، فقد علمنا أن الشريف المذكور روى عنه الجزء الأول سماعاً أي سمعه عليه حضوراً وروى الجزء الثاني إجازة فقد أجازله التستري روايته عنه ، والاجازة عندهم من نوع الهبات العلمية تستدعيها الثقة بالتلميذ قبل كل شيء ، ولم يكن الشريف قد بلغ من العمر والدراية ما يستحق الثقة ، ولذلك ظننا أن خوف الموت هو الذي استخرج هذه الهبة الثمينة ، وأن مرض التستري هو الذي رشح الشريف لذلك .

وسمع الحديث أيضاً على الشيخ أبي طاهر محمد بن علي بن العلاف من مشهوري المحدثين هو وأبوه وجده ، وسمع أيضاً على الشيخ أبي طاهر جعفر بن محمد القرشي العباداني ، وكان شيخاً صالحاً إلا أنه كان أمياً توفي سنة « ٤٩٣ » هـ بالبصرة ، وأهل الحديث في ذلك الزمان ينظرون الى عمر الشيخ وما سمعه من الكتب ، والصدق والاستقامة ولا يلتفتون إلى الامية ولا الى الثقافة ولا الى غيرها .

وسمع الشريف أبو طالب على غير هؤلاء الشيوخ وبرع في الفنون الاسلامية وظهر فضله واشتهرت معرفته ، وولي نقابة الطالبيين بالبصرة ، في أيام نقيب نقبائهم أبي عبدالله أحمد بن علي بن المعمر العلوي الحسيني المتوفي سنة « ٥٦٩ » المدفون بالمدائن « سلمان پاك » في مشهد اولاد الحسن بن علي (ع) .

كانت الطبقات المتميزة (١) « الارسطقراطية في ذلك العصر » ثلاثاً : طبقة العباسيين وطبقة العلويين ومن جرى مجراهم من آل أبي طالب وطبقة الانصار ولكل منها نقيب عام يقيم ببغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ولكل من هؤلاء اعوان من النقباء في المدن والبلدان والقرى والمشاهد ، فكان الشريف أبو طالب محمد بن أبي زيد يتولى ادارة أمور العلويين بالبصرة ويرعى مصالحهم ، ومن يقرأ التوقيع « الأمر الاداري » الذي يكتب لنقيب من النقباء يعلم أن منصب النقابة كان خطيراً كبيراً كثير الشواغل والمهمات ، فهو مثل ماسمي بالامتيازات « التميزات » الأجنبية في الشرق للدول الأجنبية .

وكان الشريف أبو طالب مع ما يستحقه منصبه العظيم من

(١) استمد هذا التميز من القرب من نسب الرسول (ص) ومن الانتماء اليه ومن خدمته أي خدمة الاسلام .

الزماتة والوقار ، ظريفاً مطبوعاً ، خفيف الروح ، حسن التصرف بالأحاديث حتى اتهم بالتزيد و « ما زالت الأشراف تهجى وتمدح » . وقد ذاع صيته بالعلم والفضل فاستقدمه الوزير الكبير بل سيد الوزراء عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة الحنبلي ، وزير الخليفة المقتفي لأمر الله وابنه المستنجد بالله الى بغداد وسمع عليه كتاب « سنن » السجستاني ، ورحل اليه رحلة طويلة أبو الفتح بن المصري فسمع عليه سنن السجستاني المذكورة ورواها عنه ببلاده ، وطبقت شهرته الآفاق وتلفعت روايته على العراق وغير العراق ، وممن روى عنه الامام برهان الدين نصر بن محمد ابن المصري البغدادي الحنبلي المقرىء المحدث المشهور . ومنحه الله تعالى عمراً طويلاً وروايته المعمرين عند طلاب الحديث هي الاكسير الاكبر في علم الحديث .

وروى عنه الشيخ الصالح أبو منصور سعيد بن أحمد بن علي المعروف بابن محاوش البصري المالكي سنن أبي داود . وكما برع الشريف أبو طالب في الادارة والنقابة والرواية والدراية فكذلك مهر في الكتابة ، ومما وجدنا له من ترسله تهنئة بعث بها إلى بعض الوزراء ولعله عون الدين ابن هبيرة المذكور يقول فيها :

« أسعد الله حضرته بهذا الموسم الشريف ولا زالت كعبة تحجها

شفاه النهاني ولا زالت أبوابه السامية للرعايا مراد الأماني ، وثغور الاسلام مؤيدة محروسة بشريف آرائه ، وشرور الأعوام محبوسة بمجدد آلائه ، ما سرت نسمة وما ابتسم الزهر بروض بمكي عليه الغمام » .

وفي شهر ربيع الأول من سنة « ٥٦٠ » هـ. توفي الشريف السيد أبوطالب محمد بن محمد بن أبي زيد بالبصرة عن احدى وتسعين ، وخلف من الذكور ـ على ما وصل اليه علمنا ـ عبدالباقي بن محمد بن أبي زيد وشرف الدين أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد ، وهو الذي عقدنا هذا الكتاب في الاعراب عن فضائله ومجمل سيرته ، وقد أومأنا إلى ذلك من قبل ولعله كان أسن من أخيه .

— ٢ —

ولد أبو جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد هذا بالبصرة سنة « ٥٤٨ » في السنة الاولى من استقلال الدولة العباسية وخلاصها من كابوس السلطنة السلجوقية ، ولد في عهد الحرية ورجوع دولة العرب اليهم ، في بيت ذي سيادة عريضة وشرف وطأ الله مقاعده وأحصف معاقده ، وفي كنف النقابة العلوية والجاه الطالبي ، ونشأه والده تنشئة

الأشراف ، وقرأ الأدب على أديب بصري يعرف بأبي محمد ابن الأحمر الحماني ، لا نعرف من حاله شيئاً كحال كثير من الادباء الذين قصر التاريخ في أمرهم ولا سيما أدباء البصرة فليس لهذه المدينة العظيمة تاريخ يرجع اليه ولا تسجيل يعتمد عليه ولولا خروج جماعة من الادباء منها وخروج متأدبين تأدبوا فيها ما وقع الينا أسم أبي محمد ابن الأحمر شيخ مترجمنا ولا غيره من أسماء أدباء البصرة ، ولا نعني بذلك النادر كأبي محمد القاسم الحريري البصري ، فانه قد كان اشتهر شهرة خرجت عن سلطان خمول البصرة ، ومع ذلك قصد بغداد فطار صيته في العالم الاسلامي .

قلنا إن أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد العلوي البصري درس الأدب بالبصرة ولا نستطيع أن نعين للقارىء الكتب التي قرأها أو سمعها تحت سمة « الأدب » فالدواوين الشعرية كديوان امرىء القيس وديوان الأعشى وديوان النابغة الذبياني وديوان الفرزدق وديوان جرير وديوان الأخطل كانت في مقدمة الدواوين التي قرأها أو سمعها هناك . ويدخل في الأدب الأخبار والأنساب ، ففي الأخبار أيام العرب ومقاماتهم وأخلاقهم وعاداتهم ومجموع تواريخهم ، والأنساب من أول ما يدرس العلوي من الفنون العربية في ذلك الزمان ، فشرف

العلويين وجاههم وتميزهم على غيرهم واختصاصهم بعناية الدولة واحترام الناس قائمة على الأنساب ، نضيف الى ذلك أن التاريخ ذكر أن هـذا السيد الشريف درس كتاب « جمهرة النسب » لابن الكلبي وسمعه على أحد الشيوخ ولعله ابن الأحمر المذكور ، ولا نظننا مبعدين بأن نقول إنه درس أدب الكاتب لابن قتيبة وأخبار البصرة لعمر بن شبة ، وديوان بشار بن برد الشاعر البصري الرقيق المقتدر ومقامات الحريري فانها على كونها كتاباً بصرياً كانت في ايام هذا الشريف قد أصبحت من أمهات كتب الأدب التي يدرسها المستأدب فيكتسب ثروة لغوية من مفرداتها وثروة إنشائية من عبائرها ، وكذلك القول في كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ و « والكامل » لأبي العباس المبرد ، فهذان الكتابان الى كونهما بصريين أيضاً لم يؤلف مثلهما في هذا الفن ، وكيف يهمل المتأدب البصري تآليفهما الاخرى كالحيوان للجاحظ والروضة للمبرد ؟

وفي أيام صباه لمعت شخصيات أدبية بالبصرة منهم فخر الدين أبو زيد المطهر بن سالار المشاني ، أحد كبار الأدباء ، وهو من تلاميذ الحريري ولتعليمه صنف المقامات وأخذ كنيته « أبا زيد » فركب المقامات عليها ، ولكنه نسبه الى « سروج » تعمية لأمره ،

وابنا الحريري أبو العباس محمد وأبو القاسم عبدالله ولكن عبدالله ترك البصرة وسكن بغداد، وشهاب الملك أبو المرتجى البصري والدكيشي أبو علي الحسن بن علي من عبدالقيس ومحمد بن يحيى القرشي والفضل بن أحمد بن سلمان والكافي سناء الدولة وغيرهم ممن لا نحب الاطالة والاملال بذكر أسمائهم، ولم يذكر التاريخ صلة للشريف أبي جعفر بهم، ولعل اكثرهم ماتوا ودرجوا والشريف لم يذرف الثانية عشرة من عمره. أما ابن (١) ماري الطبيب الأديب فقد كان معاصراً له.

وكنا ذكرنا قبل هذا أن للشريف أبي جعفر أخاً اسمه عبدالباقي واسترجحنا أن يكون عبدالباقي أصغر من أخيه، والسبب في ذلك الاسترجاح أن أبا جعفر ولي نقابة الطالبيين بالبصرة بعد وفاة أبيه سنة « ٥٦٠ » على عهد الخليفة الهام المستنجد بالله وقد جرت العادة عند القوم أن يتولى الأبن الاكبر ما كان يتولاه الأب مالم يمنع ذلك

---

(١) هو أبو العباس يحيى بن سعيد النصراني المعروف بابن ماري المسيحي، كان كاتباً أديباً شاعراً طبيباً حكيماً مفتناً، يتكسب بالطب والكتابة ويمتدح الأكابر والأعيان وله كتاب « المقامات الستين » المشهورة، توفي بالبصرة سنة « ٥٨٩ ».

سائم كالعتاهية والآنة والجنون والعشق المشهود ، على أن والده مات وعمره اثنتا عشرة سنة .

وعني أبو جعفر بالشعر وبرع في نظمه ومال الى الأدب ، زيادة على ما استعده من آلة النقابة كالفقه والخلاف والمقالات والجدل والأحكام والكلام ، وليس من شك في أنه استفاد كثيراً من أبيه أبي طالب محمد بن أبي زيد ، فقد جاء في التاريخ أنه روى الحديث عنه ولكننا نستبعد أن يكون باشر النقابة بنفسه بعد أبيه وعمره اثنتا عشرة سنة ، ففي مثل هذه الحال يجب أن يكون له نائب يباشرها بالوكالة .

وفي أيام صباه كان أمير البصرة كشتكين أحد المماليك من الأتراك وكان أميرها قبل ذلك منكوبرس من الجنس المذكور ، ولكن الخليفة المستنجد بالله أمر بقتله سنة « ٥٥٩ » ، واشتدت أطماع الأمراء في البصرة فان الأمير ابن شنكا التركماني وهو ابن أخي شحلة التركماني صاحب خوزستان « عربستان » قصد بجيشه البصرة سنة « ٥٦١ » ونهب قراها وقتل كثيراً من جند أمير واسط حظلوبرس مؤسس المدرسة الحظلوبرسية هناك ، وأسر كثيراً ، وفي سنة « ٥٦٢ » عاد بجيشه الى البصرة ونهب البلد نفسه وخربه من

الجهة الشرقيـة ، وعاث فساداً في بلدان أخرى من جنوبي العراق ، وفي مثل هذه الأحوال يكون موقف النقباء والخطباء والعلماء حرجاً ، فمنهم من ينقلب على دولتـه وينصر العدو ، فاذا هرب العدو في آخر الأمر فاما الهروب معه واما التعرض لعقاب شديد ، ومنهم من يبقى على موالاته بين الأمن والخوف . ولم يذكر التاريخ شيئاً في هـذا ، فقد كان أبو جعفر صغيراً لا يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة .

— ٣ —

وكانت سنة « ٥٧٥ » مبدأ عصر عظيم في الدوله العباسية ، وكان للفرد الحاكم المسيطر في ذلك الزمان أثر بالغ في سيرة الامة ومعيشتها وتقدمها أو تأخرها ، ففي تلك السنة استخلف الامام أبو العباس أحمد بن الحسن الملقب بالناصر لدين الله ، ذلك الذي يكاد الباحث يجزم بأنه لم يل الخلافة خليفة عباسي مثله في الذكاء وفي السياسة وفي حقيقة السلطة ورعاية مصالح الدين والأمة ، ولا نريد أن نذكر في هذه الموازنة غير الخلفاء العباسيين وان كان لنا مجال في ذلك .

لقد كانت مبايعته بالخلافة فاتحة العدل والرخاء والحكمة والتبرير وخاتمة عهد التعصب الشنيع والحكم الفظيع ، فقد اعترت الامـة في

عهد أبيه المستضيء المستضعف سكرة الحيرة وتردت بالخضوع والخضوع واستمر عليها سوط العذاب والظلم يبرح بظهرها تبريحاً، ونجم في الدولة - كما هو الحال في كل دولة أفلت شمسها وحل تعسها - رجال لا تستطيع ان تجد لهم من الأوصاف المنكرة ما يعرب عن حقائقهم الخبيثة واخلاقهم الشرسة الدنيئة، وهؤلاء وامثالهم ليس لهم دواء الا التخليد في السجون وازالة شخوصهم الرذلة عن العيون، وإلا السيف فهو الذي يريح البشرية بأقصر الطرق واسلمها من النكس والعكس اللذين يريد أولئك المجرمون ان يعرواها، فيشلاها، فتصبح شلاء بعد ان صحت وبرئت من وحشية الماضي وجفاء القدم.

ولم يكد يستخلف هذا الامام الهمام حتى خمدت سورة الظلم وتطامنت الأشباح الهائلة المهولة، ونكص الجور على عقبيه وتجددت حياة الأمة وانطلقت الأنفاس المكظومة والنفوس المزمومة وتنفس الحق كما يتنفس الصبح بعد ليلة ليلاء، وتباشرت الوجوه بالهناءة والرخاء، وانتقم الشعب من جماعة من القوم الذين كانوا يسومون خسفاً ويحكمون فيه عسفاً ويقتلون فيه ويصلبون ويحرقون، كأن نيرون روما قد حل فيهم أو كأن كلاً منهم قد استحج أو استزيد (١)،

(١) استحج صار حجاجاً واستزيد صار زياداً وهما فعلان قياسيان والغالب=

وتفرعن وطغا وتجبر .

وكان أبو جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد نقيب البصرة في الوفود التي وفدت على الخليفة الجديد ، تهنئه بالخلافة وتعزيه عن الخليفة الفقيد ، وكان أدبه قد ذهب في البلاد كل مذهب وشرق شعره وغرب ، فقال فيما قال من المدحة التي مدح بها الخليفة في اليوم الثالث من البيعة وقد رخصت الأسعار وهطلت الأمطار :

وليت وعام الناس أحمر ما حل فجدت وجاد الغيث وانقشع المحل
وكم لك من نعماء ليس بمدرك لها حاسب إلا اذا حسب الرمل ؟!

وانما قال ذلك لأن عادة الخلافة ورسومها قد جرت منذ عصور بأن يخلع على الوفود والرسل المهنئين والبطانة والحاشية وغيرهم في أيام المبايعات والمواسم والأعياد ، ويعطوا من المال مبالغ تبلغ آلاف دنانير أحياناً ، فهذا تأويل قوله « وكم لك من نعماء ليس بمدرك لها حاسب » .

لقد كان عمر أبي جعفر النقيب سبعاً وعشرين سنة يوم بويع الناصر لدين الله بالخلافة ، وكان عمر الناصر لدين الله اثنتين وعشرين

= في قياس الثاني « استزاد » الا أننا حملناه على « استصوب » في احدى صورتيه .

سنة ، فلم تسمح الرسوم ولا الأحوال ولا أعمارها بأن يجتمعا أو يرى أحدهما الآخر في مثل تلك الايام التي يكثر فيها التقاصف ، وتختلط فيها جماهير الناس وتكثر حركات أرباب الدولة وأعيانها للقيام بالرسوم ، وتمشية أمور البيعة على الوجه الاكمل وفى السبيل الأفضل وأين يقع الشريف أبو جعفر من هذا البحر الطامي من الرجال الذين أصبحوا يتدافعون ويتداهون ، ويتنافسون في السبق الى السيطرة الجديدة على الخليفة الجديد ، كما جرت العادة البشرية بين أرباب السلطان فى كل زمان ومكان ، ولكنهم خابت ظنونهم وساء تقديرهم وحبطت آمالهم وكمت نفوسهم فهذا خليفة تزدان الخلافة به ويليق الحكم بأعطافه فكأنه خلق ليكون خليفة .

ولما انتهت الرسوم وختم الاحتفال ورفعت معالم الزينة انصرفت الوفود والرسل وكان في وفد البصرة العائدين الشريف أبو جعفر ابن أبي زيد ، ثم عاد إلى مزاولة شؤون النقابة الطالبية هناك ، ورئاسة آل أبي طالب والرئاسة عبء ثقيل لا كما يظن فريق من البعيدين عن معالجة أمورها .

— ٤ —

وكان عهد الناصر لدين الله عهد الكفايات والقابليات — كما هو

شأن كل عهد صالح ـ فالمجال مفتوح للكفاة والمجتهدين والدهاة المقتدرين والأذكياء المخلصين ، وقد يندس بينهم أحد المرائين أو المتنسين لاصطياد المال والمراتب ، ولكن الأيام كفيلة بالكشف عنه ، فان صلاح رأس الدولة هو رأس كل صلاح فيها ، وكان من الرجال الذين توسم فيهم الناصر لدين الله ـ وتجاربه تزداد حكمة سنة بعد سنة ـ أبو المعالي سعيد بن علي بن أحمد الأنصاري الحنبلي المعروف بابن حديدة من ولد قطبة بن عامر بن حديدة أنصاري رسول الله (ص) ، أصله من كرخ سامرا وسكن بغداد منذ صباه وكان أحد الموسرين وذوي المال والجاه والمكانة والسير الحسنة والزلفى عند الدولة العباسية مع فضل ظاهر ، ولم يزل ملحوظاً بعين الاعظام والاكرام من ديوان الخلافة ، مشمولاً بسوابغ الانعام إلى ان اقتضت إرادة الناصر لدين الله تأهيله للوزارة فأمر باستدعائه من داره يوم السبت لسبع خلون من شعبان سنة « ٥٨٤ » هـ الى دار الخلافة على شط دجلة فى شارع المستنصر الحالي ، فمثل بباب حجرة الخليفة ، وهذه الحجرة أشرف موضع يبلغه ذو مرتبة عالية فى الدولة ، وحضر أرباب المناصب والولايات والحجاب واتباع ديوان الخلافة والقضاة والأعيان ، وخرج الامر من الامام باستيزاره ،

وخلع عليه هناك خلعة الوزارة ـ على العادة ـ وهي قميص من القماش المعروف بالأطلس وفرجية من النوع (١) الممزج وعمامة قصب(٢) كحلية ذات أعلام ذهب ، وقلد سيفاً مزيناً ، وأركب فرساً من خيل الخليفة وسلم اليه عهد الوزارة ، وبدل لقبه بأن جعل « معز الدين » فركب أبو المعالي من هناك ومشى بين يديه سائر أرباب الولايات حتى وصل الى الديوان وجلس فى دست الوزارة بالايوان الذي يجلس فيه الوزراء .

ولي هذا الوزير الحنبلي بعد وزير حنبلي قبله هو جلال الدين ابو المظفر عبيدالله بن يونس وكان هذا قد أخفق في وزارته لأن الناصر لدين الله كان قد بعثه بجيش عباسي الى بلاد العجم لمحاربة السلطان طغرل الثالث بن ارسلان بن طغرل الثاني بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ، وأمره بامور لابد منها للقائد فخالفها وسبب هزيمة الجيش العباسي وسقط هو أسيراً في السنة المذكورة « ٥٨٤ » .

كانت وزارة معز الدين أبي المعالي سعيد بن حديدة الأنصاري

---

(١) الفرجية منسوبة الى رجل اسمه « فرج » وهي تشبه الجبه المعروفة في هذه الأيام باللبادة ، والممزج من التمزيج وهو النسيج الصوفي الحريري .

(٢) عمامة القصب هي عمامة الكلبدون أي خيوط الذهب وهي تشبه الكشيدة الحالية في النقش والوشي . والأعلام هي الخطوط العريضة في القماش .

الحنبلي هـذا فاتحـة خير ونجاح فقد بعث الناصر في أيام وزارته جيشاً ثانياً يقودهم مملوك العباسيين مجاهد الدين خالص الحبشي الذي رآه ابن جبير الرحالة ببغداد أيام قدومه اليها فوجده من عجائب الدنيا ، ثم واقع مجاهدالدين خالص ذلك السلطان السلجوقي في بلاد ايران وكسر جيشه وأخرجه من همذان واصفهان فهرب السلطان الى قلعة الكرخيني « كركوك » واستجار بأمير التركمان هناك حسن بن قفجاق وطلب اليه أن يسترضى الناصر لدين الله ويتشفع له عنده ، ففعل وتاب السلطان توبة موقوتة ، ليس من شأننا هنا ان نذكر عاقبتها ونستطرد أكثر من ذلك الاستطراد . وانما يعنينا أن نذكر ان هذا الوزير قام بمراسم الخدمة الناصرية وبسط العدل وقرب أهل العلم واستجلب الأدعية الكثيرة للخليفة (١) .

وفي أيام وزارة هـذا الوزير قدم الشريف أبو جعفر يحيى بن أبي زيد النقيب الى بغـداد متظلمـاً إليـه من ناظر البصرة ، وحسبك من هذه الشكاية أن الشريف يترك بلده البصرة وشؤون النقابة ويأتي بغداد ليرفع شكواه بنفسه ، فهذا يدل على الظلم الذي

---

(١) مات أبو المعالي ابن حديدة الحنبلي الوزير سنة « ٦١٠ » هـ ودفن بمشهد الامام علي بن أبي طالب .

أجحف به ، وسوء المعاملة التي لقيها من ناظر البصرة ، ولم يمنعه الوزير العادل عن حضور مجلسه وبسط شكاته بحضرته ، فلما دنا منه أنشده قصيدة ضمنها تلك الشكاة ، وباح بالمظلمة التي نالته ، وهاج عروبة الوزير ونخوته واستعدى ديانته وأمانته ، ومن تلك القصيدة قوله يشير الى نسب الوزير الصريح وما فعله الأنصار لرسول الله (ص) من الايواء والنصرة :

وقبائل الأنصار غير قليلة ... لكن بنو غنم هم الأخيار
منهم ابو ايوب حل محمد ... في داره واختاره المختار
أنا منه في النسب الصريح وأنت من ... ذاك القبيل فلي بذلك جوار
ولقد نزلت عليك مثل نزوله ... في دار جدك والنزيل يجار
فعلام اظلم والنبي محمد ... انمى اليه وقومك الأنصار ؟

فلما سمع الوزير هذه القصيدة التي تستخرج العطف استخراجاً وترقق القلوب القاسية فضلاً عن قلب هذا الوزير النبيل الدين الصين ؟ أجل لما سمعها رق له وانحدرت دموعه على خديه وأشكاه ووعده دفع المظلمة عنه ، ثم أمر فخلع عليه خلعة ، ووصله بصلة وقضى حاجته وانصفه من ناظر البصرة وعزله . ولم نستطع معرفة ذلك الناظر الظالم .

وفي هذه القدمة التي قدم بغداد فيها رأى الخليفة الناصر لدين الله

ـ على ما استرجحت أنا ـ وكان من رسوم الخلفاء في تلك الأيام ان لا يواجه الخليفة عظيماً من العظماء الزائرين او ملكاً من الملوك الوافدين او اميراً من الأمراء المتشرفين او شريفاً من الأشراف القاصدين إلا بالليل ، وقد توصل الشريف ابو جعفر النقيب ان يتشرف برؤية الناصر (١) ليلاً ، فلما رآه وكله وجد نفسه بين يدي خليفة تنقطع الأوصاف دون بلوغ معانيه ، وتضطم الامامة منه على خير انسان ، يقوم بخلافة رسول الله (ص) اذ ذاك فكأنه النبأ العظيم ، والسيد المنتظر ، فلم ينشب وهو بين الدهش والاعجاب والسرور والرهب ان انشأ يقول :

ليلتي هذه كليلة موسى حين ناجى الآله فوق الطور
لم يكن خوفه كخوفي ولا سر ر بلقيا الاله مثل سروري

ولعل القاريء يستغرب هذين البيتين ويعدهما من المبالغة الشنيعة، ولكن المثل السائر هو « فما راء كن سمعا » . ولقد رأى ابو جعفر النقيب ذلك الخليفة العظيم ، فامتلأت نفسه فرحاً ورعباً ، وسمع كلامه

---

(١) قيل ان الذي سعى له فى ذلك فخر الدين أبو علي الحسن بن هبة الله بن الدواي حاجب الحجاب ثم صدر الخزن « وزير المالية » ، توفى سنة « ٦١٦ » ودفن بمقبرة الشونيزي وهي مقبرة الشيخ جنيد الحالية .

فراى آية من آيات الله ـ تعالى ـ تسحر بالايمان والبيان وتستند الى الدين والفرقان وتستمد مما لا يتبينه الانسان ، ولم يكن الشريف أول محبور مسحور برؤيـة ذلك الخليفة ولا آخر مجذوب مغلوب ، فقد سحر الناصر العالم الاسلامي من أقصاه الى اقصاه ، وادهش الملوك والامراء ، وملأ النفوس اسمه وهيبته وعدله ثم جدد الاسماعيلية الباطنية إسلامهم على يديه ، فلا لوم على الشريف ابي جعفر .

— ٥ —

ولم يقتصر انجذاب هذا الشريف نحو الناصر لدين الله على ذلك فقد عزم على ترك البصرة موطن اهله ومسقط رأسه ومدرجته الأولى وملعبه الأول ومنشأه ، لمجاورة الخليفة ببغداد ، وكيف لا يفعل ذلك وقد شاهد ما شاهد والتاريخ يشهد ان ناساً كثيراً من انحاء العالم الاسلامي اخذوا يأرزون الى مقر الامامة العباسية ، كما تأرز الحية الى مدخلها ، ففيها السعادة والعدل والهناءة وحسن المبـاءة والعيش الرخي. وكيف تكون الهجرة من مدينة الى مدينة لولا العدل والهناءة والعز والحرية ؟

انتقل الشريف ابو جعفر الى بغداد قبل سنة « ٦٠٥ » هـ وكانت حافلة بالعلماء والأدباء والرواة والشعراء ، والحكماء والأطباء ، فمن

العلماء صفي الدين محمد بن معد العلوي الموسوي وهو حلي علوي مثله ، ترك الحلة وسكن بغداد واجاز له الناصر لدين الله رواية « مسند احمد بن حنبل » عنه ، ومنهم فخار بن معد بن فخار العلوي الموسوي الحائري من اهل كربلاء ، والحسن بن حمدون الكاتب الأديب ، ويحيى بن زبادة الكاتب المقدم ذكره وصفي الدين محمد بن جميل الكاتب اللبيب ومحمد بن سليمان بن قتامش الفيلسوف العجيب ، وعبدالسلام بن عبدالوهاب بن عبدالقادر الجيلي الحكيم ويوسف بن اسماعيل اللغاني الحنفي ، مدرس جامع السلطان - وقد ذكرناها من قبل - واسماعيل بن علي الحنبلي وقد اشرنا اليه ، وابو الخير مصدق بن شبيب النحوي وابو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري صاحب اعراب القرآن ، والمبارك بن المبارك ابن الدهان الضرير ، ويحيى بن الربيع الواسطي ويحيى بن القاسم التكريتي ومحمد بن يحيى بن فضلان وكل منهم كان مدرس النظامية ، وعبدالرحمن بن شجاع وأحمد بن مسعود التركستاني وقد كانا يدرسان بمدرسة ابي حنيفة ، وعلي بن علي الفارقي مدرس مدرسة السيدة زمرد خاتون ام الناصر لدين الله قرب مدفنها المعروف اليوم بتمبة الستزبيدة ، وكان شافعياً ، ويعقوب ابن صابر المنجنيقي الشاعر ومحمد بن عبدالملك الوظائفي

وعيسى بن نصر النميري الشاعر ، وابو علي الحسن بن محمد بن عبدوس الواسطي ثم البغدادي الشاعر وابو القاسم احمد بن علي بن بختيار ، وابو الفضل عبدالمنعم بن عبدالعزيز بن النطروني الاسكندري الأديب الشاعر ، وقوام الدين نصر بن ناصر بن مكي المدائني وياقوت الرومي الشاعر المتسمي بعبد الرحمن ، وابو محمد الحسن بن يحيى بن عمارة الكاتب الشاعر وابو عبدالله محمد بن المهنا البشينائي والمؤيد ابو البركات محمد بن زيد التكريتي ، واحمد بن المؤمل بن الحسن البغدادي ، وابو الشكر محمود بن سليمان الموصلي وابو علي الحسن بن محمد بن طوق الكاتب الشاعر وابو المعالي هبة الله بن الحسين بن المطلب المنبوز بالجرذ .

وما حط الشريف ابو جعفر رحله ببغداد حتى قصده طلاب الأدب وأهل الحديث ، ورواة الشعر والأخبار والأنساب ، فقد كان في كل ذلك علماً من الأعلام واماماً من الأئمة ، ولم تستغن بغداد عن علمه وادبه على كثرة العلماء والأدباء فيها ، لأنه كان يجمع الى ذكائه سلامة التفكير وحسن التعليل ، وصدق التحليل ، فهو فيلسوف الأدب والأخبار ، وكان من اقرب التلاميذ اليه واكثرهم اختلافاً الى مجلسه عزالدين ابو حامد عبدالحميد بن هبة الله المعروف بابن ابي

الحديد الشافعي . صاحب شرح نهج البلاغة ، فقد قرأ عليه كتاب « جمهرة الانساب » (١) لابن الكلبي وكتب المغازي واخبار الدول الاسلامية وكتب الشعر والأدب وفاتحه في امور كثيرة ، كانت تعتلج في صدره فلا يرى لها حالاً ولا معللاً ، ورأى الشريف في عزالدين ابن ابي الحديد موضعاً للثقة ومعدناً للوفاء فأفضى اليه بأحاديث ، كانت ضرورية للثقافة الاسلامية وللتاريخ ، وكان من براعة شارح نهج البلاغة ان سجل تلك الآحاديث بألفاظها تارة وبمعانيها تارة أخرى ، وهو غير مليم في ذلك ، فانه شرع في تسجيلها بعد أكثر من ثلاثين سنة ، والعجب من حافظته القوية كيف حافظت على المعاني فضلاً عن العبارات ! ولعل الشريف لم يكن يظن أن تلميذه هذا سيثبت آراءه في كتاب من الكتب ، لأن شأنه السماع لا الايداع .

وأثنى ابن أبي الحديد عبدالحميد على استاذه بما يستحق من المدح وذكر أنه كان ثقة مأموناً متين الديانة جم العلم واسع الفهم وانه وان كان علوياً لم يكن ذا هوى تعصبي ولا ذا جنف وانه لم يكن امامياً

---

(١) وكان عالماً بالنسابين حدث قال « لم يكن تحت السماء أعرف من أبي علي عبدالحميد بن التقي بالأنساب » وكان يحدث عن معرفة هذا النسابة بالعجائب ، كذا قال الصفدي في ترجمة عبدالحميد .

حتى يقال انه يذب عن نحلته ويدفع عن مذهبه ، ودونك بعض ما قال في استاذه الشريف العلامة أبي جعفر .

قال في موضع من شرح نهج البلاغة : « وكان النقيب أبو جعفر - رحمه الله - غزير العلم صحيح العقل منصفاً في الجدال غير متعصب للمذهب » الى ان قال « وكان ابو جعفر - رح - لا يجحد الفاضل فضله والحديث شجون » .

وقال في موضع آخر : « كان ابو جعفر - رح - مع ما يذهب اليه من مذهب العلويين ، منصفاً وافر العقل » .

وقال في موضع ثالث : « وقد ذكرت في هـذا الفصل خلاصة ما حفظتـه عن النقيب أبي جعفر ولم يكن امامي المذهب ولا كان يبرأ من السلف ولا يرتضى قول المسرفين من الشيعـة ، ولكنه كلام أجراه على لسانه البحث والجدل بيني وبينه على ان العلوي لو كان كرامياً (١) لابد ان يكون عنده نوع من تعصب وميل على الصحابة وان قل » . وقال في موضع رابع « سألت النقيب وكان بعيداً عن الهوى والعصبية » .

---

(١) الكرامية بتشديد الراء اتباع محمد بن كرام من أصحاب المقالات ، كان يعد الله جسماً كالأجسام .

وهذه الأقوال وغيرها لا تثبت قيمتها الا بما سنذكر من البينات التي هي من آثار الشريف ابي جعفر ابن ابي زيد ، والا فما أسهل ان يدعي مدع لنفسه او لغيره انه بعيد عن التعصب الذميم حتى اذا رأيت اعماله وقرأت اقواله وجدته تضج الانسانية من تعصبه الشديد وتفكيره الباطل البليد، وهذه عادة الاحتراف بالدين، والاتجار باليقين، وقلما تجد مجرماً لا يدعي بين يدي الحاكم انه بريء طاهر الذيل صالح الأعمال ، بعيد عن سيرة الأرذال .

ولم يكن اقبال الرواة على شعر الشريف ابي جعفر بأقل من اقبالهم على ادبه الأخباري ومسموعاته ، فقد كان شاعراً رقيق الأشعار رائق المعاني ، رشيق الألفاظ وقد قدمنا شيئاً من شعره ، وذكر ابو المظفر يوسف بن قزاغلي المعروف بسبط ابن الجوزي ان الشريف اجاز له رواية شعره ، ومن شعره أوائل قصيدة يمدح بها الخليفة الناصر لدين الله وهي :

هذا العقيق وهذا الجزع والبان ... فاحبس فلي فيه اوطار واوطان

آليت والحر لا يلوي أليته ... ان لا تلذ بطيب النوم أجفان

حتى تعود لياليا التي سلفت ... بالأجرعين وجيراني كما كانوا

يا حبذا شجر الجرعاء من شجر ... وحبذا روضه المخضل والبان ؟!

إذا النسيم سرى مالت ذوائبه كأنما الغصن الممطور سكران
فللنسيم على الأغصان هينمة وللحمام على الأفنان الحان
وبارق لاح والظلماء داجية والنجم في الأفق الغربي حيران
هدءاً يذكرني هيفاء ضاحكة فلم أنم وغدي هم وأحزان (١)
كتمت حبك والأجفان تظهره وليس للحب عند العين كتمان
غادرت بالغدر في الاحشاء نار جوى وقد هجرت ففيض العين غدران

وهو من الطبقة الأولى من الشعر الصناعي ، ولسنا نطمع من السيد النقيب ان يكون شعره في النسيب والغزل صحيحاً بعيداً عن الصناعة ، فليس ذلك من الانصاف ، وليس في الامكان أبدع مما كان ولكننا يجوز لنا ان نقول : لعل الشريف أحب في ايام شبابه ، وذكرى الحب لا تبليها السنون الكثيرة فهي الذ ما في الحياة من الذكريات .

— ٦ —

وفي شهر رمضان من سنة « ٦١٣ » توفى الله علامة عصره وفريد دهره وشاعر آل ابي طالب أبا جعفر محمد بن أبي زيد ودفن

(١) في هذا البيت بعض التصحيف ، ولم نجد وجها أقرب للسلامة من هذا الذي هو عليه الآن .

في مقابر قريش عند مشهد الامام موسى بن جعفر « الكاظمية » وغاب ذلك العالم الفاضل الأديب الكامل الشاعر البارع ، وكانت الحسرات عليه كثيرة والأسف شديداً ، فآفة الانسان هذا الموت الذي يهدم البنيان ، ويفسخ التدبير ويبدد الآمال ، ولم أعرف من ذرية أبي جعفر الذكور الا تاج الدين ابا زيد اسماعيل ، ولعله كان قد ترك له نقابة الطالبيين بالبصرة وانتقل الى بغداد ، فقد ذكر في كتب الأدب أن الأمير علي بن مقرب العيوني الشاعر مدحه بعد منحدره من بغداد ، الى البصرة أما بغداد فقد دخلها العيوني مرتين الأولى سنة « ٦١٠ » والأخرى سنة « ٦١٤ » ، وأما البصرة فغير مرة قال بعض الادباء :

وكان ابن مقرب قد حضر مجلس الشريف تاج الدين اسماعيل بن أبي زيد هذا للسلام عليه ، فخلع عليه ثوبين لها قيمة ثمينة ، قبل أن ينشد المدح بل قبل أن يعلم انه عازم على مدحه ، وذلك من شيم أهل الفضل والكرم فانهم يأتي برهم ابتداءاً لا استدراراً ولا استخراجاً ، ومما قال في مدحه :

يخفي الصبابة والألحاظ تبديها ويظهر الزهد بين الناس تمويها
ويستر الحب كيلا يقال صبا شيخاً فتعلنه الأنفاس تنويها

واهالها من ليال لو تعود كما ... كانت وأي ليال عاد ماضيها !!
فاقت جميع الليالي بالبهاء كما ... فاق البرية « تاج الدين » تشبيها
من يدع يوماً أبا زيد لحاجته ... فقد دعا دعوة ما خاب داعيها
إليك يا ابن رسول الله شاردة ... بكراً يطول رواة الشعر راويها

وهي طويلة نجتزىء منها بهذا .

وقد نشأت بين الشريف تاج الدين اسماعيل والأمير البحراني الشاعر ألفة وصحبة واقترح عليه مرة ، وقد مرض مرضاً خفيفاً ابياتاً من الشعر فقال فيها قال :

اعيذك أن تسمو اليك الحوادث ... وأن تتغشاك الخطوب الكوارث
سليل العلا لا زلت في ظل نعمة ... لك المجد ثان والسلامة ثالث
وحزت المدي في خفض عيش وعزة ... يدين لها سام وحام ويافث
لعمري لقد أشبهت فضلا وسؤدداً ... أباك علياً حين تبدو النكائث
جزى الله تاج الدين خيراً فانه ... به تدفع الجلى وتكفى الهنابث
فدى لأبي زيد رجال قلوبهم ... عن الخير غلف والحبال رثائث
ودونكها يا ابن النبي غريبة ... تخبر أن العائبيها هلابث

وهي طويلة أيضاً ، أراد بها ان يظهر براعته في الاستكثار من قافية الثاء ولكنه أسف وأغرب وأبهم وما أعرب ، فليس هذا بالشعر

الذي يدخل الآذان بلا استئذان ، وتمرؤه العيون كما تستقري زهر الرياض .

ولا يتهيأ لنا أن نقول شيئاً في « بيت أبي زيد » نقباء البصرة اكثر مما قلنا ، سوى ان ابن أخي الشريف ابي جعفر كان اسمه « عبدالباقي » ويلقب بكمال الدين ، فولد له ابن سماه « عليا » وولد لعلي هذا ابن سماه يحيى ولقبه بعماد الدين ، فآخر رجل منهم وقع الي تاريخه هو « عماد الدين يحيى بن علي بن عبدالباقي بن محمد بن محمد بن محمد بن علي بن ابي زيد العلوي الحسني » . وقدم هـذا بغداد سنة « ٦٨٧ » على عهـد السلطان أرغون بن أباقا بن هولاكو الايلخاني وزاره جماعة من العلماء ، وكان نازلاً عند السيد غياث الدين أبي المظفر عبدالكريم بن طاووس بالمشهد الـكاظمي أو زائراً له .

هذا موجز سيرة الشريف أبي جعفر يحيى بن ابي زيد النقيب الذي سنراه واضح الصورة في آثاره النبيلة وان كانت قليلة ، ولعل ما جئت به هو اكثر ما عرف من سيرته المجهولة لقلة المراجع التاريخية .

ثقافة يحيى بن أبي زيد النقيب
وآراؤه الخاصة به

يرى الانسان أحياناً مجازفات للمؤرخين فان منهم من يذكر المترجم ويخصه بالدرجات العلى من العلوم والفنون وهو لا يستحق ذلك ومنهم من يبعثه الحسد أو التعصب الذميم على تجريد المترجم من فضله وفضائله وعلمه وأدبه . والمؤرخون ناس مثلنا لهم أهواء وقلوب ، وعواطف وصوادف ، ونحن ان لا نذكر شيئاً من ثقافة يحيى بن أبي زيد النقيب فاننا نخشى أن نرمى بالمجازفة والتهويل والتفخيم ، وها نحن أولاء نذكر من ثقافة الرجل ما يبدد الظنون ويوضح آراءه العلوية المعتدلة ، وأول ما نبدأ به من ذلك ما قاله الشريف من آرائه الخاصة به في إسلام أكابر قريش ورأيه في الخلفاء الراشدين الثلاثة وغيرهم .

١ - رأيه في ثبوت الاسلام
وفي الخلفاء الراشدين الثلاثة وغيرهم

قال الشريف أبو جعفر النقيب : « إن الاسلام ما حلا عند العرب ولا ثبت في قلوبهم إلا بعد موت النبي (ص) حين فتحت عليهم الفتوح وجاءتهم الغنائم والأموال وكثرت عليهم المكاسب وذاقوا طعم الحياة

وعرفوا لذة الدنيا ولبسوا الناعم وأكلوا الطيب وتمتعوا بنساء الروم وملكوا خزائن كسرى وتبدلوا بذلك القشف والشظف والعيش الخشن (١) وأكل الضباب والقنافذ واليرابيع ولبس الصوف والكرابيس أكل اللوزينجات والفالوذجات ولبس الحرير والديباج فاستدلوا بما فتحه الله عليهم وأتاحه لهم على صحة الدعوة وصدق الرسالة، وقد كان النبي (ص) وعدهم بأنه ستفتح عليهم كنوز كسرى وقيصر فلما وجدوا الأمر قد وقع بموجب ما قاله عظموه وبجلوه وانقلبت تلك الشكوك وذلك النفاق (٢) وذلك الاستهزاء إيماناً ويقيناً وإخلاصاً، وطاب لهم العيش وتمسكوا بالدين لأنه زادهم طريقاً الى نيل الدنيا فعظموا ناموسه وبالغوا في اجلاله واجلال الرسول الذي جاء به ثم انقرض الاسلاف وجاء الأخلاف على عقيدة ممهدة وأمر اخذوه تقليداً من أسلافهم الذين ربوا في حجورهم ثم انقرض ذلك القرن وجاء من بعدهم كذلك وهلم جرا، ولولا الفتوح والنصر والظفر الذي منحهم الله - تعالى - والدولة التي ساقها اليهم لانقرض دين الاسلام بعد وفاة رسول الله (ص) ولكان يذكر في التواريخ

(١) يجوز أن يكون الأصل « الجشب ».

(٢) ذكر قبل ذلك شيئاً من هذا ومن الاستهزاء وسنذكرهما في موضعهما.

كما تذكر الآن نبوة خالد بن سنان العبسي حيث ظهر ودعا إلى الدين ولكان الناس يعجبون من ذلك ، ويتذاكرونه كما يعجبون ويتذاكرون أخبار من نبغ من الرؤساء والملوك والدعاة الذين انقرض أمرهم وبقيت أخبارهم » . (١)

وقال في الشيخين الخلفيتين أبي بكر وعمر :

« انهما مهدا دين الاسلام وارسيا قواعده ، ولقد كان شديد الاضطراب في حياة رسول الله (ص) وانما مهداه بما تيسر للعرب من الفتوح والغنائم في دولتهما » (٢) .

وسأله ابن أبي الحديد قال : فتقول ان أبا بكر وعمر في الجنة ؟ فقال :

« اي والله أعتقد ذلك لأنهما اما أن يعفو الله تعالى عنهما ابتداءاً أو بشفاعة الرسول (ص) أو بشفاعة علي أو بؤاخذهما بعقاب أوعتاب ثم ينقلهما الى الجنة لا استريب في ذلك أصلاً ولا أشك في ايمانهما برسول الله (ص) وصحة عقيدتهما » .

وقال في عثمان بن عفان :

« ان الدولة في ايامه كانت على اقبالها وعلو جدها ، بل كانت

---

(١) و(٢) شرح نهج البلاغة لعز الدين ابن ابي الحديد ج ٢ ص ٥٧٦ .

الفتوح في ايامه اكثر والغنائم أعظم لولا أنه لم يراع ناموس الشيخين ولم يستطع ان يسلك مسلكهما وكان مضعفاً في أصل القاعدة مغلوباً عليه وكثير الحب لأهله واتيح له من مروان وزبرسوء أفسد القلوب عليه وحمل الناس على خلعه وقتله ».

« رحم الله عثمان وهل كان الا واحداً منا وغضاً من شجرة عبد مناف ، ولكن أهله كدروه علينا وأوقعوا العداوة والبغضاء بيننا وبينه » (١).

وقال في موضع آخر : « والفرق بين الرجلين أبي بكر وعمر وبين الثالث عثمان ما أصيب به الثالث وقتل تلك القتلة وخلعه الناس وحصروه وضيقوا عليه بعد أن توالى انكارهم افعاله وجبهوه في وجهه وفسقوه وذلك لأنه استأثر هو وأهله بالأموال والغمسوا فيها واستبدوا بها فكانت طريقته وطريقتهم مخالفة لطريقي أبي بكر وعمر فلم تصبر العرب على ذلك ، ولو كان عثمان سلك طريق عمر في الزهد وجمع الناس وردع الامراء والولاة عن الاموال وتجنب استعمال أهل بيته ووفر اعراض الدنيا وملاذها وشهواتها على الناس زاهداً فيها تاركاً لها معرضاً عنها ما ضره شيء قط ولا أنكر عليه أحد قط ولو

(١) المرجع المذكور في الموضع المزبور .

حول الصلاة من الكعبة الى البيت المقدس بل لو أسقط عن الناس احدى الصلوات الخمس واقتنع منهم بأربع وذلك لأن همم الناس مصروفة الى الدنيا والأموال فاذا وجدوها سكتوا واذا فقدوها هاجوا واضطربوا ، الست ترى أن رسول الله (ص) كيف قسم غنائم هوازن على المنافقين وعلى أعدائه الذين يتمنون قتله وموته وزوال دولته ، فلما أعطاهم احبوه إما كلهم واما اكثرهم ومن لم يحبه منهم بقلبه جامله وداراه وكف عن اظهار عداوته والاجلاب عليه »(١) .

وقال في معاوية بن أبي سفيان :

« حاش لله أن يثبت معاوية في جريدة الشيخين الفاضلين أبي بكر وعمر ، والله ما هما الا كالذهب الابريز ولا معاوية إلا كالدرهم الزائف » .

٢ ـ اعتذاره عن الصحابة

إن مسألة نص رسول الله (ص) على الخليفة بعده واختيار الامام علي وعدم النص من المسائل التي أقامت العالم الاسلامي وأقعدته ، وشغلت العلماء وملأت الكتب والأسفار ، وقد قرأ ابن أبي الحديد

---

(١) المرجع المذكور « ج ٣ ص ١١٨ ـ ٩ » .

المذكور على شيخه أبي جعفر محمد ابن أبي زيد شيئاً من الأخبار الدالة على النص فقال له :

« ما اراها الا تكاد تكون دالة على النص ولكني أستبعد أن يجتمع الصحابة على دفع نص رسول الله (ص) على شخص بعينه ... » .

فقال أبو جعفر له : « أبيت الا ميلاً الى المعتزلة ، ان القوم لم يكونوا يذهبون في الخلافة الى انها من معالم الدين وانها جارية مجرى العبادات الشرعية كالصلاة والصوم ولكنهم كانوا يجرونها مجرى الأمور الدنيوية ويذهب لهذا مثل تأمير الامراء وتدبير الحروب وسياسة الرعية ، وما كانوا يبالون في أمثال هذا من مخالفة نصوصه «ص» اذا رأوا المصلحة في غيرها ، ألا تراه كيف نص على إخراج أبي بكر وعمر في جيش أسامة بن زيد ولم يخرجا لما رأيا أن في مقامهما مصلحة له وللملة وحفظاً للبيضة ودفعاً للفتنة » .

« وقد كان رسول الله «ص» يخالف وهو حي في أمثال ذلك فلا ينكره ولا يرى به بأساً ، ألست تعلم أنه نزل في غزاة بدر منزلا على أن يحارب قريشاً فيه ، فخالفته الأنصار وقالت : ليس الرأي في نزولك هذا المنزل ، فاتركه وانزل في منزل كذا . فرجع الى آرائهم . وهو الذي قال للأنصار عام قدم المدينة : لا تؤبروا

النخل(١). فعملوا على قوله ، فخالت نخلهم في تلك السنة ولم تثمر، حتى قال لهم: أنتم أعرف بأمر دنياكم وانا أعرف بأمر دينكم . وهو الذي أخذ الفداء من أسارى بدر فخالفه عمر ، فرجع الى تصويب رأيه بعد أن فات الأمر وخلص الأسرى ورجعوا الى مكة ، وهو الذي أراد أن يصالح الأحزاب على ثلث ثمر المدينة ليرجعوا عنه فأبى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فخالفاه فرجع الى قولهما . وقد كان قال لأبي هريرة : اخرج فناد في الناس ، من قال « لا إله إلا الله » مخلصاً بها قلبه دخل الجنة . فخرج أبو هريرة فأخبر عمر بذلك ، فدفعه عمر في صدره حتى وقع على الأرض ، فقال له : لا تقلها فانك ان تقلها يتكلوا عليها ويدعوا العمل. فأخبر أبو هريرة رسول الله (ص) بذلك، فقال : لا تقلها وخلهم يعملون ، فرجع الى قوله عمر ؟ » .

« وقد أطبقت الصحابة اطباقاً واحداً على ترك كثير من النصوص لما رأوا المصلحة في ذلك كاسقاط سهم ذوي القربى واسقاط سهم المؤلفة قلوبهم وهذان الامران أدخل في باب الدين منهما في الدنيا . وقد عملوا بآرائهم أموراً لم يكن لها ذكر في الكتاب والسنة كحد الخمر فانهم عملوه اجتهادا ولم يحد رسول الله «ص» شارب الخمر وقد

(١) أي لا تلقحها .

شربها الجم الغفير في زمانه بعد نزول آية التحريم . ولقد كان أوصاهم في مرضه أن اخرجوا نصارى نجران من جزيرة العرب . فلم يخرجوهم حتى مضى صدر من خلافة عمر ، وعملوا في ايام أبي بكر برأيهم في ذلك باستصلاحهم . وهم الذين هدموا المسجد بالمدينة وحولوا المقام بمكة وعملوا بمقتضى ما يغلب في ظنونهم من المصلحة ولم يقفوا مع موارد النصوص حتى اقتدى بهم الفقهاء من بعد فرجح كثير منهم القياس على النصوص حتى استحالت الشريعة وصار اصحاب القياس أصحاب شريعة جديدة » .

« وكان اكثر ما يعملونه بآرائهم فيما يجري مجرى الولايات والتأمير والتدبير وتقرير قواعد الدولة وما كانوا يقفون مع نصوص رسول الله (ص) وتدبيراته اذا رأوا المصلحة في خلافها ، وكانوا يقيدون نصوصه المطلقة بقيد غير مذكور لفظاً وكأنهم كانوا يفهمونه من قرائن أحواله ، وتقدير ذلك القيد « افعلوا كذا إن رايتموه مصلحة » . وأما مخالفتهم له فيما هو محض الشرع والدين وليس بمتعلق في امور الدنيا وتدبيراتها كأنه يقل جدا نحو ان يقول « الوضوء شرط في الصلاة » . فيجمعوا على رد ذلك ويجيزوا الصلاة من غير وضوء أو يقول « صوم شهر رمضان واجب »

فيطبقوا على مخالفة ذلك ويجعلوا شوالاً عوضاً منه ، فانه بعيد اذلا غرض لهم فيه ولا يقدرون على اظهار مصلحة خفيت عنه (ص) » .

« والقوم الذين كانوا قد غلب على ظنونهم أن العرب لا تطيع علياً « ع » فبعضها للحسد وبعضها للوتر والثأر وبعضها لاستحداثهم سنه وبعضها لاستطالته عليهم وترفعه عنهم وبعضها كراهة اجتماع النبوة والخلافة في بيت واحد وبعضها للخوف من شدة وطأته وشدته في دين الله وبعضها لرجاء تداول قبائل العرب الخلافة اذا لم يقتصر بها على بيت مخصوص عليه ، فيكون رجاء كل حي لوصولهم اليها ثابتاً مستمراً ، وبعضها ببغضه لغضهم من قرابته لرسول الله (ص) وهم المنافقون من الناس ومن في قلبه زيغ من أمر النبوة فأصفق الكل اصفاقاً واحداً على صرف الأمر عنه لغيره واحتج رؤساءهم بـ « أنا حفتا الفتنة » وعلمنا أن العرب لا تطيعه ولا تتركه ، وتاولوا عند أنفسهم النص ولا ينكر النص وقالوا « انه النص ولكن الحاضر يرى مالا يرى الغائب والنص قد يترك لأجل المصلحة الكلية » . وأعانهم على ذلك مسارعة الأنصار الى ادعائهم الأمر واخراجهم سعد بن عبادة من بيته وهو مريض لينصبوه خليفة ـ فيما زعموا ـ واختلط الناس وكثر الخبط وكادت الفتنة ان تشتعل نارها ، فوثب رؤساء المهاجرين

فبايعوا أبا بكر وكانت فلتة ، ـ كما قال قائلهم ـ وزعموا انهم أطفأوا بها نائرة الأنصار ، فمن سكت من المسلمين وأغضى ولم يتعرض فقد كفاهم أمر نفسه ومن قال سراً أو جهراً « ان فلاناً قد كان رسول الله (ص) ذكره أو نص عليه أو أشار اليه » أسكتوه في الجواب بـ « انا بادرنا الى عقد البيعة مخافة الفتنة » واعتذروا عنده ببعض ماتقدم اما أنه حديث السن أو تبغضه العرب لأنه وترها وسفك دماءها أو لانه صاحب زهو وتيه أو كيف تجتمع النبوة والخلافة في مغرس واحد ؟ ! بل قد قالوا في العذر ما هو أقوى من هذا واوكد ، قالوا « أبو بكر أقوى على هـذا الأمر من علي بن أبي طالب ، لا سيما وعمر بن الخطاب يعضده ويساعده والعرب تحب أبا بكر ويعجبها لينه ورفقه وهو شيخ مجرب للأمور لا يحسده أحد ولا يحقد عليه أحد ولا يبغضـه احـد وليس بذي شرف في النسب فيشمخ على النـاس بشرفه ولا بذي قربى من الرسول (ص) فيدل بقرباه ، ودع ذا كله فانه فضل مستغنى عنه . لو نصبنا علياً لارتد الناس عن الاسلام وعادت الجاهلية كما كانت ، فأيما أصلح في الدين الوقوف مع النص المفضي الى ارتداد الخلق ورجوعهم الى الاصنام والجاهلية أم العمل بمقتضى الأصلح واستبقاء الاسلام واستدامة العمل بالدين وان كان

فيه مخالفة النص ؟ » .

« وسكت الناس عن الانكار فانهم كانوا متفرقين فمنهم من هو مبغض شانىء لعلي بن أبي طالب ، فالذي تم من صرف الأمر عن علي هو قرة عينه وبرد فؤاده ومنهم ذو الدين وصحة اليقين الا انه لما رأى كبراء الصحابة قد اتفقوا على صرف الأمر عن علي ظن أنهم إنما فعلوا ذلك لنص سمعوه من رسول الله (ص) ينسخ ما قد كان سمعه من النص في حق علي ، لا سيما ما رواه أبو بكر من قول النبي (ص) « الأئمة من قريش » فان كثيراً من الناس توهموا أنه ناسخ للنص الخاص وان معنى الخبر « انكم مباحون فى نصب امام من قريش ، من أي بطون قريش كان ، فانه يكون اماماً ، واكد في نفوسهم رفض النص الخاص ما سمعوا من قول رسول الله (ص) « ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » وقوله (ص) « سألت الله أن لا يجمع أمتي على ضلال فأعطانيها » . فأحسنوا الظن بعاقدي البيعة قالوا « هؤلاء أعرف بأغراض رسول الله (ص) من كل احد » . فأمسكوا وكفوا عن الانكار » .

« ومنهم فرقة أخرى وهم الاكثرون أعراب جفاة وطغام أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح ، فهؤلاء مقلدون لا يسألون ولا ينكرون

ولا يبحثون وهم مع أمرائهم وولاتهم لو أسقطوا عنهم الصلاة الواجبة لتركوها » .

« فلذلك انمحق النص وخفي ودرس وقويت كلمة العاقدين لبيعة أبي بكر وقواها - زيادة على ذلك - اشتغال علي وبني هاشم برسول الله (ص) من اغلاق بابهم عليهم وتخليتهم الناس يعملون ما شاؤوا وأحبوا ، من غير مشاركة لهم فيما هم فيه ، لكنهم ارادوا استدراك ذلك بعد ماتات والفائت لا رجعة له. واراد علي بعد ذلك نقض البيعة فلم يتم له ذلك . وكانت العرب لا ترى الغدر ولا تنقض البيعة صواباً كانت أو خطأ . وقد قالت الأنصار وغيرها لعلي « أيها الرجل لو دعوتنا الى نفسك قبل البيعة ماعدلنا بك أحداً ولكنا بايعنا ، فكيف السبيل الى نقض البيعة بعد وقوعها ؟ » .

« ومما جرأ عمر بن الخطاب على بيعة أبي بكر والعدول عن علي - مع ما كان يسمعه من الرسول (ص) في امره - أنه انكر مراراً على الرسول (ص) اموراً اعتمدها فلم ينكر عليه رسول الله (ص) انكاره بل رجع في كثير منها اليه ، وأشار عليه بأمور كثيرة نزل القرآن فيها بموافقته ، فأطمعه ذلك في الاقدام على اعتماد كثير من الامور كان يرى فيها المصلحة مما هو خلاف النص وذلك نحو انكاره

عليه في الصلاة على عبدالله بن ابي المنافق وانكاره فداء اساري بدر وانكاره عليه تبرج لسانه للناس وانكاره قضية الحديبية وانكاره امان العباس لأبي سفيان بن حرب وانكاره واقعة أبي حذيفة بن عتبة وانكاره امر النداء « من قال لا آله الا الله دخل الجنة » وانكاره أمره بذبح النواضح وانكاره على النساء بحضرة رسول الله (ص) هيبتهن له دون رسول الله (١) (ص) الى غير ذلك من أمور كثيرة تشتمل عليها كتب الحديث ، ولو لم يكن الا انكاره قول رسول الله (ص) في مرضه « ايتوني بدواة وكتف اكتب لكم ما لا تضلون بعدي » . وقول عمر ما قال وسكوت رسول الله عنه . واعجب الأشياء أنه قال ذلك اليوم « حسبنا كتاب الله » فافترق الحاضرون من المسلمين في الدار فبعضهم يقول « القول ما قال رسول الله (ص) » وبعضهم يقول « القول ما قال عمر » . فقال رسول الله ـ وقد كثر اللغط وعلت الأصوات ـ « قوموا عني فما ينبغي لنبي أن يكون عنده هذا التنازع » . فهل بقي للنبوة مزية أو فضل اذا كان

---

(١) مختصر الخبر أن عمر بن الخطاب استأذن على النبي (ص) ذات يوم وعنده نساء من قريش يكلمنه عالية أصواتهن فلما استأذن عمر تبادرن الى الحجاب . وتمام الخبر في الأصول .

الاختلاف قد وقع بين القولين وميل المسلمون بينهما فرجح قوم هذا وقوم هـذا ، أفليس ذلك دالاً على ان القوم سووا بينه وبين عمر وجعلوا القولين مسألة خلاف ، ذهب كل فريق الى نصرة واحد منهما كما يختلف اثنان من عرض المسلمين في بعض الأحكام فينصر قوم هذا وينصر ذاك آخرون ؟ فمن بلغت قوته وهمته الى هذا كيف ينكر منه انه يبـايع ابا بكر لمصلحة رآها ويعدل عن النص ؟ ومن الذي ينكر عليه ذلك وهو في القول الذي قاله للرسول (ص) في وجهه غير خائف من الأنصار ولا ينكر عليه احد لا رسول الله (ص) ولا غيره ؟ وهذا اشد من مخالفة النص في الخلافة وافظع واشنع » .

« ان الرجل ما اهمل امر نفسه بل اعـد اعذاراً واجوبة وذلك لأنه قال لقوم عرضوا له بحديث النص « ان رسول الله (ص) رجع عن ذلك باقامته أبا بكر في الصلاة مقامه » وأوهم أن ذلك جار مجرى النص على ابي بكر بالخلافة . وقال يوم السقيفة : « ايكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدمها رسول الله (ص) في الصلاة ؟ » .

ثم اكد ذلك بأن قال لأبي بكر وقد عرض عليه البيعـة « أنت صاحب رسول الله (ص) في المواطن كلها شدتها ورخائها ، رضيك لديننا أفلا نرضاك لدنيانا ؟ ثم عاب علياً بخطبته بنت أبي جهل فأوهم

أن رسول الله (ص) كرهه لذلك ووجد عليه ، وارضاه عمرو بن العاص فروى حديثاً افتعله واختلقه على رسول الله قال : سمعته يقول « ان آل أبي طالب ليسوا لي باولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين » . فجعلوا ذلك كالناسخ لقوله (ص) « من كنت مولاه فهذا مولاه » .

قال ابن ابي الحديد : قلت للنقيب أبي جعفر « أيصح النسخ في مثل هذا ، اليس هذا نسخاً للشيء قبل تقضي وقت فعله ؟ فقال :

« سبحان الله من أين تعرف العرب هذا وأنى لها أن تتصوره فضلاً عن أن تحكم بعدم جوازه ، فهل يفهم حذاق الاصوليين هذه فضلاً عن حمقى العرب ؟ هؤلاء قوم ينخدعون بأدنى شبهة ويستمالون بأدنى سبب وتبنى الأمور معهم على ظواهر النصوص وأوائل الأدلة وهم أصحاب جهل وتقليد لا أصحاب تفصيل ونظر » .

« ثم اكد حسن ظن الناس (بأبي بكر وعمر وجماعتها) أنهم اظلفوا أنفسهم عن الأموال وزهدوا في متاع الدنيا وزخرفها وسلكوا مسلك الرفض لزينتها والرغبة عنها والقناعة بالطفيف النزر منها وأكلوا الجشب ولبسوا الكرابيس، ولما القت اليهم الدنيا افلاذ كبدها وفروا الأموال على الناس وقسموها بينهم ولم يتدنسوا منها بقليل ولا كثير ، فمالت اليهم القلوب وأحبتهم النفوس وحسنت فيهم

الظنون وقال من كان في نفسه شبهة أو وقفة في أمرهم « لو كان هؤلاء قد خالفوا النص لهوى أنفسهم لكانوا أهل دنيا وظهر عليهم الميل اليها والرغبة فيها والاستئثار بها ، وكيف يجمعون على أنفسهم مخالفة النص وترك لذات الدنيا ومآربها فيخسروا الدنيا والآخرة وهذا لا يفعله عاقل والقوم عقلاء ذوو ألباب وآراء صحيحة » . فلم يبق عند أحد شك في أمرهم ولا ارتياب بفعلهم وثبتت العقائد على ولائهم وتصويب أفعالهم ونسوا لذة الرئاسة وان اصحاب الهمم العلية لا يلتفتون الى المأكل والمشرب والمنكح وانما يريدون الرئاسة ونفوذ الأمر كما قال الشاعر :

وقد رغبت عن لذة المال انفس وما رغبت عن لذة الأمر والنهي (١)

٣ - رأيه في علي والامامة وغير ذلك

قال بعض أصحاب الامام علي الأسديين له ذات يوم : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به ؟

فقال علي : « يا أخا بني أسد ، إنك لقلق الوضين ، ترسل في غير سدد ولك بعد ذمامة الصهر وحق المسألة وقد استعلمت فاعلم ،

(١) شرح نهج البلاغة « ج ٣ ، ص ١١٥ - ٨ » .

اما الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسباً والأشدون برسول الله (ص) نوطاً فانها كانت اثرة شحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين ، والحكم لله والمعود اليه يوم القيامة :

ودع عنك نهباً صيح في حجراته ولكن حديثاً ما حديث الرواحل

وهلم الخطب في ابن ابي سفيان فلقد اضحكني الدهر بعد ابكائه ولا غرو والله، فياله خطباً يستفرغ العجب ويكثر الأود ، حاول القوم اطفاء نور الله من مصباحه ، وسد فواره من ينبوعه وجدحوا بيني وبينهم شربا وبيئاً ، فان ترتفع عنا وعنهم محن البلوي احملهم من الحق على محضه وان تكن الأخرى (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون) .

قال عز الدين ابن ابي الحديد : وسألت ابا جعفر يحيى بن محمد العلوي نقيب البصرة وقت قراءتي عليه ، عن هذا الكلام . . . فقلت من يعني (ع) بقوله « كانت اثرة شحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين » ومن القوم الذين عناهم الأسدي بقوله « كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وانتم احق به ؟ » . هل المراد يوم السقيفة او يوم الشورى ؟ فقال : يوم السقيفة : فقلت : إن نفسي لا تسامحني ان انسب الى الصحابة عصيان رسول الله (ص)

ودفع النص . فقال : « وانا فلا تسامحني ايضاً بنفسي ان انسب الرسول (ص) الى اهمال امر الامامة وان يترك الناس فوضى سدى مهملين وقد كان لا يغيب عن المدينة الا ويؤمر عليها اميراً وهو حي وليس بالبعيد عنها فكيف لا يؤمر وهو ميت لا يقدر على استدراك ما يحدث » .

« ليس يشك أحد من الناس أن رسول الله (ص) كان عاقلاً كامل العقل، اما المسلمون فاعتقادهم فيه معلوم وأما اليهود والنصارى والفلاسفة فيزعمون أنه حكيم تام الحكمة ، سديد الرأي ، أقام ملة ، وشرع شريعة ، فاستجد ملكاً عظيماً ، بعقله وتدبيره، وهذا الرجل العاقل الكامل يعرف طباع العرب وغرائزهم وطلبهم بالثأرات والذحول ولو بعد الأزمان المتطاولة ويقتل الرجل من القبيلة رجلاً من بيت آخر فلا يزال اهل ذلك المقتول وأقاربه يتطلبون القاتل ليقتلوه ، حتى يدركوا ثارهم منه فان لم يظفروا به قتلوا بعض أقاربه وأهله فان لم يظفروا بأحدهم قتلوا واحداً أو جماعة من تلك القبيلة به ، وان لم يكونوا رهطه الأدنين، والاسلام لم يحل طبائعهم ولا غير هذه السجية المركوزة في اخلاقهم والغرائز بجالها فكيف يتوهم لبيب أن هذا العاقل الكامل الذي وتر العرب وعلى الخصوص قريشاً وساعده على

سفك الدماء وازهاق الأنفس وتسلد الضغائن ابن عمه الأدنى وصهره وهو يعلم أنه سيموت كما يموت الناس ويتركه بعده وعنده ابنته وله منها ابنان يجريان عنده مجرى ابنين من ظهره حنواً عليهما ومحبة لهما، يعدل عنه في الأمر بعده ولا ينص عليه ولا يستخلفه فيحقن دمه ودم ابنيه وأهله باستخلافه ؟ الا يعلم هذا العاقل الكامل أنه اذا تركه وترك بنيه وأهله سوقة ورعية فقد عرض دماءهم للاراقة بعده، بل يكون هو (ص) هو الذي قتلهم وأشاط بدمائهم، لأنهم لا يعتصمون بعده بأمر يحميهم وانما يكونون مضغة للآكل وفريسة للمفترس، يتخطفهم الناس وتبلغ فيهم الأغراض، فأما اذا جعل السلطان فيهم والأمر اليهم فانه يكون قد عصمهم وحقن دماءهم بالرئاسة التي يصولون بها، ويرتدع الناس عنهم لأجلها ومثل هذا معلوم بالتجربة الا ترى ان ملك بغداد أو غيرها من البلاد لو قتل الناس ووترهم وأبقى في نفوسهم الأحقاد العظيمة عليه، ثم أهمل أمر ولده وذريته من بعده وفسح للناس أن يقيموا ملكاً من عرضهم وواحداً منهم وجعل بنيه سوقة كبعض العامة لكان بنوه بعده قليلاً بقاؤهم سريعاً هلاكهم ولوثب عليهم الناس ذو والأحقاد والترات من كل جهة يقتلونهم ويشردونهم كل مشرد، ولو أنه عين ولداً من

أولاده للملك وقام خواصه وخدمه وخوله بأمره من بعده لحقنت دماء أهل بيته ولم تطل يد أحد من الناس اليهم لناموس الملك ، وأبهة السلطنة وقوة الرئاسة وحرمة الامارة ، أفترى ذهب عن رسول الله (ص) هذا المعنى ام أحب ان يستأصل أهله وذريته من بعده ؟ وأين موضع الشفقة من فاطمة العزيزة عنده الحبيبة الى قلبه ، أتقول انه احب ان يجعلها كواحدة من فقراء المدينة تتكفف الناس وان يجعل علياً المكرم المعظم عنده الذي كانت حاله معلومة معه كأبي هريرة السدوسي وأنس بن مالك الأنصاري يحكم الامراء في دمه وعرضه ونفسه وولده فلايستطيع الامتناع وعلى رأسه مائة الف سيف مسلول تتلظى اكباد أصحابها عليه ويودون أن يشربوا دمه بأفواههم ، ويأكلوا لحمه بأسنانهم ، قد قتل أبناءهم واخوانهم وآباءهم وأعمامهم والعهد لم يظل والقروح لم تنقرف والجروح لم تندمل ؟ » .

قال ابن أبي الحديد : فقلت له « لقد أحسنت فيما قلت الا ان لفظ علي (ع) يدل على أنه لم يكن نص عليه ، الا تراه يقول (ونحن الأعلون نسباً والأشدون بالرسول نوطاً) فجعل الاحتجاج بالنسب وشدة القرب ، فلو كان عليه نص لقال عوض ذلك (وأنا المنصوص علي المخطوب باسمي) » .

فقال ـ ر ح ـ : « انما أتى الأسدي من حيث يعلم لا من حيث يجهل ، الا ترى أنه سأله فقال : كيف دفعكم قومكم عن هـذا المقام وانتم احق به ؟ فهو انما سأله عن دفعهم عنه وهم أحق به من جهـة اللحمة والعترة ، ولم يكن الأسدي يتصور النص ولا يعتقده ولا يخطر بباله ، لأنه لو كان هذا في نفسه لقال له : لم دفعك الناس عن هذا المقام وقد نص عليك رسول الله (ص) ؟ ولم يقل له هذا . وانما قال كلاماً عاماً لبني هاشم كافة : كيف دفعكم قومكم عن هذا وأنتم احق به ؟ اي باعتبار الهاشمية والقربى . فأجابه بجواب اعاد قبله المعنى الذي تعلق به الأسدي بعينه تمهيداً للجواب فقال : انما فعلوا ذلك مع انا اقرب الى رسول الله (ص) من غيرنا ، لأنهم استأثروا علينا. ولو قال: انا المنصوص عليّ والمخطوب باسمي في حياة رسول الله (ص) ما كان قد اجابه ، لأنه ما سأله : هل انت منصوص عليك ام لا ؟ ولا : هل نص رسول الله (ص) بالخلافـة على احد ام لا ؟ وانما قال : لم دفعكم قومكم عن الأمر وانتم اقرب الى ينبوعه ومعدنه منهم ؟ فأجابه جواباً ينطبق على السؤال ويلائمه ، فلو أخذ يصرح له بالنص ويعرفه تفـاصيل باطن الأمر لنفر عنه واتهمه ولم يقبل قوله ولم ينجذب الى تصديقه فكان اولى الامور في حكم السياسة وتدبير الناس ان يجيب

بما لا نفرة منه ولا مطعن عليه فيه (١) » .

ومن قرأ كلام الشريف في هذه المسألة وجد في نفسه حاجة ان يقول : وان صرفت الخلافة بسبب من الأسباب عن الامام علي بن ابي طالب ، واصبح معرضاً لما ذكره الشريف من الأذى والضر والقتل ، فلماذا لم يقتل ؟ قال ابن ابي الحديد : سألت النقيب ابا جعفر فقلت له : اني لأعجب من علي (ع) كيف بقي تلك المدة الطويلة بعد رسول الله (ص) وكيف لم يقتل ولم يفتك به في جوف منزله مع تلظي الاكباد عليه ؟ فقال :

« لولا انه ارغم انفه بالتراب ووضع خده في حضيض الأرض لقتل ولكنه اخمل نفسه واشتغل بالعبادة والصلاة والنظر في القرآن وخرج عن ذلك الزي الأول وذلك الشعار ونسي السيف وصار كالفاتك يثوب ويصير سائحاً في الأرض أو راهباً في الجبال ، ولما اطاع القوم الذين ولوا الأمر تركوه وسكتوا عنه ولم تكن العرب لتقدم عليه الا بمواطأة من متولي الأمر وباطن في السر منه فلما لم يكن لولاة الأمر باعث وداع الى قتله وقع الامساك عنه ولولا ذلك لقتل ، ثم الأجل بعد معقل حصين » .

---

(١) شرح نهج البلاغة « ج ٢ ص ٤٧٠ ـ ٨ » .

قال ابن ابي الحديد : فقلت له أحق ما يقال في حديث خالد (١) ؟ فقال « إن قوماً من العلويين يذكرون ذلك ، وقد روي ان رجلاً جاء الى زفر بن الهذيل صاحب ابي حنيفة فسأله عما يقول ابو حنيفة في جواز الخروج من الصلاة بأمر غير التسليم نحو الكلام والفعل الكثير او الحدث . فقال زفر انه جائز ، قد قال ابو بكر في تشهده ما قال . فقال الرجل : وما الذي قاله ابو بكر ؟ قال : لا عليك فأعاد الرجل عليه السؤال ثانية وثالثة ، فقال زفر : اخرجوه اخرجوه ، قد كنت احدث انه من اصحاب ابي الخطاب » .

قال ابن ابي الحديد : قلت للشريف ابي جعفر « فما الذي تقوله انت ؟ » . قال : « انا استبعد ذلك وان روته الامامية ، اما خالد بن الوليد فلا استبعد منه الاقدام على علي لشجاعته في نفسه ولبغضه اياه ولكني استبعده من ابي بكر فانه كان ذا ورع ولم يكن ليجمع بين اخذ الخلافة ومنع فدك واغضاب فاطمة وقتل علي (ع) حاش لله من ذلك » .

---

(١) يعني الخبر الذي زعم فيه ان أبا بكر وخالد بن الوليد ائتمرا بعلي بن أبي طالب ليقتلاه وهو يصلي ، ثم بدا لأبي بكر فقال في أثناء تشهده قولا أمر به خالداً أن لا يفعل ما اتفقا عليه .

قال ابن ابي الحديد : فقلت له « أكان خالد يقدر على قتل علي؟ » قال : « نعم ولم لا يقدر على ذلك والسيف في عنقه وعلي اعزل غافل عما يراد به ، قد قتله ابن ملجم غيلة ، وخالد اشجع من ابن ملجم » . فسألته عما ترويه الامامية في ذلك كيف الفاظه فضحك وقال « كم عالم بالشيء وهو يسائل » ثم قال : دعنا من هذا ، ما الذي تحفظ في هذا المعنى ؟ قلت : قول ابي الطيب المتنبي :

نحن أدرى وقد حللنا بنجد أقصير طريقنا أم يطول

وكثير من السؤال اشتياق وكثير من رده تعليل

فاستحسن ذلك وقال : لمن عجز البيت الذي استشهدت به ؟ قلت: لمحمد بن هانيء المغربي وأوله :

في كل يوم أستزيد تجاربا كم عالم بالشيء وهو يسائل

فبارك علي مراراً ثم قال : نترك الآن هذا ونتمم ما كنا فيه . وكنت أقرأ عليه في ذلك الوقت « جمهرة النسب » لابن الكلبي ، فعدنا الى القراءة وعدلنا عن الخوض فيما كان اعترض الحديث فيه(١) .

---

(١) شرح نهج البلاغة « ج ٣ ص ٢٨٣ » .

وقال النقيب لتلميذه « فما يقول اصحابكم في الشيخين ؟ » قال « اما الذي استقر عليه رأي المعتزلة بعد اختلاف كثير بين قدمائهم في التفضيل وغيره فأن علياً أفضل الجماعة وانهم تركوا الأفضل لمصلحة رأوها وانه لم يكن هناك نص يقطع الغموض وانما كان اشارة وايماء لا يتضمن شيء منها صريح النص وان علياً نازع ثم بايع وجمح ثم استجاب ولو أقام على الامتناع لم نقل بصحة البيعة ولا بلزومها . ولو جرد السيف كما جرده في آخر الأمر لقلنا بفسق كل من خالفه على الاطلاق كائناً من كان ولكنه رضي بالبيعة آخراً ودخل في الطاعة ، وبالجملة أصحابنا المعتزلة يقولون : ان الأمر كان له وكان هو المستحق والمتعين فان شاء اخذ لنفسه وان شاء ولاه غيره فلما رأيناه قد وافق على ولاية غيره اتبعناه ورضينا بما رضي » .

فقال النقيب لتلميذه « قد بقي بيني وبينكم قليل ، انا اذهب الى النص وانتم لا تذهبون اليه » فقال له ابن ابي الحديد « انه لم يثبت النص عندنا بطريق يوجب العلم وما تذكرون انتم صريحاً فأنتم تنفردون بنقله وما عدا ذلك من الأخبار التي نشارككم فيها فلها

تأويلات معلومة » .

فقال له النقيب وهو ضجر « يا عبدالحميد لو فتحنا باب التأويلات لجاز ان نتأول قولنا : لا إله الا الله محمد رسول الله . دعني من التأويلات الباردة التي تعلم القلوب والنفوس انها غير مرادة وان المتكلمين تكلفوها وتعسفوها ، فانما انت وانا في الدار ولا ثالث بيننا فيستحي احدنا من صاحبه أو يخافه » .

قال ابن ابي الحديد « فلما بلغنا الى هذا الموضع دخل قوم ممن كان يخشاه فتركنا ذلك الاسلوب من الحديث وخضنا في غيره (١) » .

قال ابن ابي الحديد : وسألت النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن ابي زيد - رح - قلت : أتقول لو ان حمزة وجعفراً كانا حيين يوم مات رسول الله (ص) كانا يبايعان علياً بالخلافة ؟ فقال : نعم . كانا اسرع الى بيعته من النار الى المرفج . فقلت : أظن جعفراً كان يبايعه ويتابعه وما أظن حمزة كذلك واراه جباراً قوي النفس شديد الشكيمة ذاهباً بنفسه شجاعاً بهمة وهو العم والأعلى سناً وآثاره في الجهاد معروفة واظنه كان يطلب الخلافة لنفسه . فقال :

« الأمر في أخلاقه وسجاياه كما ذكرت ولكنه كان صاحب دين

---

(١) شرح النهج « ج ٢ ، ص ٥٧٧ » .

متين وتصديق خالص لرسول الله (ص) ولو عاش لرأى من احوال علي (ع) مع رسول الله (ص) ما يوجب ان يكسر له نخوته وان يقيم له صعره وان يقدمه على نفسه وان يتوخى رضى الله ورضا رسوله فيه ، وان كان بخلاف ايثاره . اين خلق حمزة السبعي من خلق علي الروحاني اللطيف الذي جمع بينه وبين خلق حمزة فاتصفت بهما نفس واحدة وأين هيولانية نفس حمزة وخلوها من العلوم من نفس علي القدسية التي أدركت بالفطرة لا بالقوة التعليمية ما لم تدركه نفوس مدققي الفلاسفة الآلهيين ؟ ولو ان حمزة حي حتى رأى من على ما رآه وغيره لكان اتبع له من ظله وأطوع له من ابي ذر والمقداد ، وأما قولك : هو العم والأعلى سناً فقد كان العباس العم والأعلى سنا وقد عرفت ما بذله له وندبه اليه ، وكان أبو سفيان كالعم وكان أعلى سناً وقد عرفت ما عرضه عليه . ما زالت الأعمام تخدم ابناء الاخوة وتكون اتباعاً لهما ، الست ترى دواد بن علي وعبدالله بن علي وصالح بن علي وسليمان بن علي وعيسى بن علي واسماعيل بن علي وعبدالصمد بن علي خدموا ابن أخيهم وهو عبدالله السفاح بن محمد بن علي وبايعوه وتابعوه وكانوا أمراء جيوشه وأنصاره وأعوانه ، الست ترى حمزة والعباس اتبعا ابن أخيهما (ص) وأطاعاه ورضيا برئاسته

وصدقا دعوته ؟ الست تعلم ان أبا طالب كان رئيس بني هاشم وشيخهم والمطاع فيهم وكان محمد (ص) يتيمه ومكفوله وجارياً مجرى أحد اولاده عنده ثم خضع له واعترف بصدقه ودان لأمره حتى مدحه بالشعر كما يمدح الأدنى الأعلى ؟ وان سراً اختص به محمد (ص) حتى اقام أبا طالب وحاله معه حاله مقام المادح له لسر عظيم وخاصية شريفة وان في هذا المعتبر عبرة ان يكون الانسان الفقير الذي لا أنصار له ولا أعوان معه ولا يستطيع الدفاع عن نفسه فضلاً عن أن يقهر غيره تعمل دعوته وأقواله في الأنفس ما تعمله الخمر في الأبدان المعتدلة المزاج حتى تطيعه أعمامه ويعظمه مربيه وكافله ومن هو الى آخر عمره القيم بنفقته وغذاء بدنه وكسوة جسده حتى يمدحه بالشعر كما يمدح الشعراء الملوك والرؤساء . وهذا في باب المعجزات عند المنصف أعظم من انشقاق القمر وانقلاب العصا ومن إنباء القوم بما يأكلون ومايدخرون في بيوتهم » .

« كيف قلت : أظن جعفراً كان يبايعه ويتابعه ولا أظن في حمزة ذلك ؟ ان كنت قلت ذلك لأنه أخوه فانه أعلى منه سناً هو اكبر من علي بعشر سنين ، وقد كانت له خصائص ومناقب كثيرة وقال فيه النبي (ص) قولا شريفاً اتفق عليه المحدثون ، قال له لما افتخر هو

وعلي وزيد بن حارثة وتحاكموا الى رسول الله (ص) : أشبهت خلقي وخلقي . فجعل فرحاً ثم قال لزيد : أنت مولانا وصاحبنا . فجعل أيضاً ثم قال لعلي : انت أخي وخالصتي . فلم يجعل كأن ترادف التعظيم له وتكرره عليه لم يجعل عنده للقول ذلك الموضع وكان غيره اذا عظم عظماً (كذا) نادراً فيحسن موقعه عنده . واختلف الناس في أي المدحتين أعظم (١) » .

٤ ـ مشابهة أحوال علي لأحوال النبي (ﷺ)

قال ابن ابي الحديد في كلام له ذكر فيه سياسة الرسول (ص) وسياسة عمر وعلي : « فان قلت : فما قولك في سياسة الرسول (ص) وتدبيره اليس كان منتظماً سديداً مع انه كان لا يعمل الا بالنصوص والتوقيف بالوحي ، فهلا كان تدبير علي (ع) وسياسته كذلك اذا قلتم انه كان لا يعمل الا بالنص ؟ » .

وقد أجاب ابن أبي الحديد نفسه عن ذلك بأن الرسول (ص) كان يجتهد في سياسته ، وكان يجوز لعلي أن يجتهد ثم قال « والسؤال أيضاً ساقط على هذا المذهب لأن اجتهاد علي (ع) لايساوي اجتهاد

(١) شرح النهج « ج ٣ ، ص ٣٨ ـ ٩ » .

النبي (ص) وبين الاجتهادين كما بين المنزلتين » .

قال : وكان أبو جعفر ابن أبي زيد الحسني نقيب البصرة (رح) اذا حدثناه في هذا يقول :

« انه لا فرق عند من قرأ السيرتين بين سيرة النبي (ص) وسياسة أصحابه أيام حياته وبين سيرة أمير المؤمنين (ع) وسياسة أصحابه أيام حياته ، فكما ان علياً لم يزل أمره مضطرباً معهم بالمخالفة والعصيان والهرب الى أعدائه وكثرة الفتن والحروب فكذلك كان النبي (ص) لم يزل ممنواً بنفاق المنافقين وأذاهم وخلاف أصحابه عليه ، وهرب بعضهم الى اعدائه وكثرة الحروب والفتن ، ألست ترى القرآن العزيز مملوءاً بذكر المنافقين والشكوى منهم والتألم من أذاهم له (١) كما ان كلام علي مملوء بالشكوى من منافقي أصحابه والتألم من أذاهم والتوائهم عليه... وهم الذين التووا على النبي في الحرب يوم بدر وكرهوا لقاء العدو حتى خيف خذلانهم وذلك قبل أن تتراءى الفئتان وأنزل فيهم « يجادلونك في الحق بعدما تبين ، كأنما يساقون الى الموت وهم

---

(١) قال : « وذلك نحو قوله تعالى : ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ، ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول ... » وذكر عدة آيات بينات .

ينظرون » . وهم الذي كانوا يتمنون لقاء العدو حتى انهم ظفروا برجلين في الطريق فسألوهما عن العير ، فقالا : لا علم لنا بها وانما رأينا جيش قريش من وراء ذلك الكثيب . فضربوهما ورسول الله (ص) قائم يصلي . فلما اذا ثامس الضرب قالا : بل العير أمامكم فاطلبوها . فلما رفعوا الضرب عنهما قالا : والله ما رأينا العير ولا رأينا الا الخيل والسلاح والجيش . فأعادوا الضرب عليهما مرة ثانية . فقالا ، وهما يضربان : العير أمامكم فخلوا عنا . فانصرف رسول الله (ص) من الصلاة ، وقال : اذا صدقا كم ضربتموهما واذا كذبا كم خليتم عنهما ، دعوهما فما رأيا الا جيش أهل مكة » . وأنزل قوله تعالى « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين » . قال المفسرون : الطائفتان العير ذات اللطيمة الواصلة الى مكة من الشام صحبة أبي سفيان بن حرب واليها كان خروج المسلمين والاخرى الجيش ذو الشوكة ، وكان (ص) قد وعدهم باحدى الطائفتين فكرهوا الحرب وأحبوا الغنيمة » .

« وهم الذي فروا عنه (ص) يوم أحد وأسلموه وأصعدوا في الجبل ، وتركوه حتى شج الأعداء وجهه وكسروا ثنيته وضربوه على

بيضته حتى دخلت جمجمته ووقع من فرسه الى الأرض بين القتلى وهو يستصرخ بهم ويدعوهم فلا يجيبه أحد منهم إلا من كان جارياً مجرى نفسه وشديد الاختصاص به ، وذلك قوله تعالى « اذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم » أي ينادي فيسمع نداءه آخر الهاربين لا أولهم لأن أولهم أوغلوا في الفرار وبعدوا عن أن يسمعوا صوته وكان قصارى الأمر أن يبلغ صوته واستصراخه من كان على ساقة الهاربين » .

« ومنهم الذين عصوا أمره في ذلك اليوم حيث أقامهم على الشعب في الجبل وهو الموضع الذي خاف أن تكر عليه منه خيل العدو من ورائه ، وهم أصحاب عبدالله بن جبير فانهم خالفوا أمره وعصوه فيما تقدم به اليهم ورغبوا في الغنيمة ففارقوا مركزهم حتى دخل الوهن على الاسلام بطريقهم لأن خالد بن الوليد كر في عصابة من الخيل فدخل من الشعب الذي كانوا يحرسونه فما أحس المسلمون بهم الا وقد غشوهم بالسيوف من خلفهم فكانت الهزيمة وذلك قوله تعالى « حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » .

« وهم الذين عصوا أمره في غزاة تبوك بعد أن اكد عليهم

الأوامر وخذلوه وتركوه ولم يشخصوا معه فأنزل فيهم « يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير » . وهذه الآية خطاب مع المؤمنين لا مع المنافقين وفيها أوضح دليل على أن أصحابه وأولياءه المصدقين لدعوته كانوا يعصونه ويخالفون أمره واكد عتابهم وتقريعهم وتوبيخهم بقوله تعالى « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون » . ثم عاتب رسول الله (ص) على كونه أذن لهم في التخلف وانما اذن لهم لعلمه أنهم لا يحبونه في الخروج فرأى أن يجعل المنة به عليهم (سبباً) الى الاذن لهم وإلا قعدوا ولم تحصل له المنة . فقال « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » أي هلا أمسكت عن الاذن لهم حتى يتبين لك قعود من يقعد وخروج من يخرج ، وصادقهم من كاذبهم لأنهم كانوا قد وعدوه بالخروج معه كلهم وكان بعضهم ينوي الغدر وبعضهم يعزم على أن يخيس بذلك الوعد ، فلو لم يأذن لهم لعلم من

يتخلف ومن لا يتخلف ، فعرف الصادق منهم والكاذب ثم بين سبحانه وتعالى أن الذين يستأذنونه في التخلف خارجون من الايمان فقال له « لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين، إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون » .

« ولا حاجة الى التطويل بذكر الآيات المفصلة فيما يناسب هذا المعنى ، فمن تأمل الكتاب العزيز علم حال النبي (ص) مع أصحابه كيف كانت ، ولم ينقله الله تعالى الى جواره الا وهو مع المنافقين له والمظهرين خلاف ما يضمرون من تصديقه في جهاد شديد حتى لقد كاشفوه مراراً فقال لهم يوم الحديبية « احلقوا وانحروا » مراراً فلم يحلقوا ولم ينحروا ولم يتحرك أحد منهم عند قوله ، وقال له بعضهم وهو يقسم الغنائم « اعدل يا محمد فانك لم تعدل » . وقالت الأنصار له مواجهة يوم حنين « أتأخذ ما أفاء الله علينا بسيوفنا فتدفعه الى أقاربك من أهل مكة ؟ » . حتى أفضى الأمر الى أن قال لهم في مرض موته « ائتوني بدواة وكتف اكتب لكم ما لا تضلون بعده » . فعصوه ولم يأتوه بذلك وليتهم اقتصروا على عصيانه ولم يقولوا له ما قالوا وهو يسمع » .

وكان أبو جعفر (رح) يقول من هذا ما يطول شرحه والقليل يغني عن الكثير وكان يقول :

« من تأمل حال الرجلين النبي (ص) وعلي وجدهما متشابهتين في جميع أمورهما أو في اكثرها وذلك لأن حرب رسول الله (ص) مع المشركين كانت سجالاً ، انتصر يوم بدر وانتصر المشركون عليه يوم أحد وكان يوم الخندق كفافاً خرج هو وهم سواءاً لا عليه ولا له لأنهم قتلوا رئيس الأوس وهو سعد بن معاذ وقتل منهم فارس قريش وهو عمرو بن عبدود وانصرفوا عنه بغير حرب بعد تلك الساعة التي كانت ثم حارب بعدها قريشاً يوم الفتح فكان الظفر له وهكذا كانت حروب علي (ع) انتصر يوم الجمل وخرج الأمر بينه وبين معاوية على سواء في صفين قتل من اصحابه رؤساء ومن اصحاب معاوية رؤساء وانصرف كل واحد من الفريقين عن صاحبه بعد الحرب على مكانه ثم حارب بعد صفين أهل النهروان فكان الظفر له ، ومن العجب أن أول حروب رسول الله (ص) كانت بدراً وكان هو المنصور فيها وأول حروب علي الجمل وكان هو المنصور فيها ثم كان من صحيفة الصلح والحكومة يوم صفين نظير ما كان من صحيفة الصلح والهدنة يوم الحديبية ثم دعا معاوية في آخر ايام علي الى نفسه وتسمى بالخلافة

كما أن مسيلمة والأسود العنسي دعوا الى أنفسهما في آخر أيام رسول الله (ص) وتسميا بالنبوة ، واشتد على علي ذلك كما اشتد على رسول الله (ص) أمر الأسود ومسيلمة وأبطل الله أمرهما بعد وفاة النبي (ص) وكذلك أبطل أمر معاوية وبني إمية بعد وفاة علي ولم يحارب رسول الله (ص) أحد من العرب إلا قريش ما عدا يوم حنين ولم يحارب علياً من العرب أحد إلا قريش ما عدا يوم النهروان ومات علي شهيداً بالسيف ومات رسول الله (ص) شهيداً بالسم وهذا لم يتزوج على خديجة أم أولاده حتى ماتت وهذا لم يتزوج على فاطمة أم أشرف أولاده حتى ماتت ، ومات رسول الله (ص) عن ثلاث وستين سنة ومات علي عن مثلها » .

« انظروا الى أخلاقها وخصائصها هذا شجاع وهذا شجاع وهذا فصيح وهذا فصيح وهذا سخي جواد وهذا سخي جواد وهذا عالم بالشرائع والامور الآلهية وهذا عالم بالفقه والشريعة والآمور الآلهية الدقيقة الغامضة ، وهذا زاهد في الدنيا غير نهم عليها ولا مستكثر منها وهذا زاهد في الدنيا تاركها غير متمتع بلذاتها وهذا مدئب نفسه في الصلاة والعبادة وهذا مثله وهذا غير محبب اليه شيء من الامور العاجلة إلا النساء وهذا مثله وهذا ابن ابن عبد المطلب بن هاشم ،

وهذا في قعدده ، وأبواهما أخوان لأب واحد دون غيرهما من بني عبد المطلب ، وربي محمد (ص) في حجر والد هذا وهو أبو طالب فكان جارياً عنده مجرى أحد أولاده ثم لما شب (ص) وكبر استخلصه من بني أبي طالب وهو غلام فرباه في حجره مكافأة لصنيع أبي طالب به فامتزج الخلقان وتماثلت السجيتان واذا كان القرين مقتدياً بالقرين فما ظنك بالتربية والتثقيف الدهر الطويل ؟ فواجب أن تكون اخلاق محمد (ص) كأخلاق أبي طالب وأن تكون أخلاق علي كأخلاق أبي طالب ابيه ومحمد (ص) مربيه وان يكون الكل شيمة واحدة وسوساً واحدا وطينة مشتركة ونفساً غير منقسمة ولا متجزئة وأن لا يكون بين بعض هؤلاء وبعض فرق ولا فضل لولا أن الله تعالى اختص محمداً (ص) برسالته واصطفاه لوحيه لما يعلمه من مصالح البرية في ذلك ومن أن اللطف به أكمل والنفع بمكانه أتم واعم ، فامتاز رسول الله (ص) بذلك عمن سواه وبقي ما عدا الرسالة على امر الاتحاد ، والى هذا المعنى اشار (ص) بقوله لعلي « اخصمك بالنبوة فلا نبوة بعدي وتخصم الناس بسبع » . وقال له ايضاً « انت مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي » فأبان نفسه منه بالنبوة واثبت له ما عداها من جميع الفضائل والخصائص مشتركاً بينهما [1] » .

---

(١) شرح نهج البلاغة « ج ٢ ، ص ٥٧٢ ـ ٥٧٦ » .

٥ ـ سياسة علي في الحال والمال

من كلام الامام علي في الرد على من نسب اليه قلة الدهاء وترك التدبير « والله ماعاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس ولكن كل غدرة فجرة ولكل فجرة كفرة ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة ، والله ما استغفل بالمكيدة ولا استغمز بالشديدة » (١) .

قال النقيب يحيى بن أبي زيد : « ولو ان علياً صانع اصحابه بالمال واعطاه الوجوه والرؤساء لكان أمره الى الانتظام والاطراد اقرب ولكنه رفض جانب التدبير الدنيوي وآثر لزوم الدين وتمسك بأحكام الشريعة . والملك امر آخر غير الدين فاضطرب عليه اصحابه وهرب كثير منهم الى العدو » (٢) .

٦ ـ لماذا أحب الناس علي بن أبي طالب

قال ابن ابي الحديد : قلت للنقيب ابي جعفر يحيى بن ابي زيد مرة « ما سبب حب الناس لعلي بن ابي طالب وعشقهم له وتهالكهم

---

(١) شرح نهج البلاغة « ج ٢ ، ص ٥٧٢ ـ ٥٧٦ » .
(٢) المرجع المذكور « ج ٣ ، ص ١١٩ » .

في هواه ؟ ودعني في الجواب من حديث الشجاعة والعلم والفصاحة وغير ذلك من الخصائص التي رزقه الله سبحانه الكثير الطيب منها ».

فضحك وقال لي « كم تجمع جرامبزك (١) علي ؟ » ثم قال :

« هنا مقدمة ينبغي ان تعلم وهي ان اكثر الناس موتورون في الدنيا ، اما المستحقون فلا ريب في ان اكثرهم محرومون نحو عالم يرى انه لاحظ له في الدنيا ، ويرى جاهلاً غيره مرزوقاً وموسعاً عليه ، ونحو شجاع قد ابلى في الحرب وانتفع بموضعه وليس له عطاء يكفيه ويقوم بضروراته ويرى غيره - وهو جبان فشل يفرق من ظله - مالكاً لقطر عظيم من الدنيا وقطعة وافرة من المال والرزق ، ونحو عاقل سديد التدبير صحيح العقل قد قدر عليه رزقه وهو يرى غيره احمق مائقاً تدر عليه الخيرات وتتحلب عليه اخلاف الرزق ونحو ذي دين قويم وعبادة حسنة واخلاص وتوحيد وهو محروم ضيق الرزق ويرى غيره يهودياً او نصرانياً أو زنديقاً كثير المال حسن الحال ، حتى إن هذه الطبقات المستحقة يحتاجون في اكثر الاوقات الى الطبقات التي لا استحقاق لها وتدعوهم الضرورة الى الذل لهم

(١) يقال : ألقى عليه جرامبزه أي ثقله وقريب منه قول النقيب المذكور ومعناه حتام تكلفني ثقل مسائلك ؟

والخضوع بين ايديهم اما لدفع ضرر اولاستجلاب نفع . ودون هذه الطبقات من ذوي الاستحقاق ايضاً ما تشاهده عياناً من نجار حاذق او بناء عالم او نقاش بارع ، او مصور لطيف على غاية ما يكون من ضيق رزقهم وقعود الوقت بهم وقلة الحيلة لهم وترى غيرهم ممن ليس يجري مجراهم ولا يلحق طبقتهم مرزوقاً مرغوباً فيه ، كثير المكسب طيب العيش واسع الرزق ، فهذا حال ذوي الاستحقاق والاستعداد واما الذين ليسوا من اهل الفضائل كحشوا العامة فانهم ايضاً لا يخلون من الحقد على الدنيا ، والذم لها والحنق والغيظ لما يلحقهم من حسد امثالهم وجيرانهم ولا يرى احد منهم قانعاً بعيشه ولا راضياً بحاله بل يستزيد ويطلب حالاً فوق حاله » .

« فاذا عرفت هذه المقدمة فعلوم ان علياً كان مستحقاً محروماً ، بل هو امير المستحقين المحرومين وسيدهم وكبيرهم ومعلوم ان الذين يناهم الضيم وتلحقهم المذلة والمضيمة يتعصب بعضهم لبعض ويكونون الباً ويداً واحدة على المرزوقين الذين ظفروا بالدنيا ونالوا مآربهم منها لاشتراكهم في الامر الذي آلمهم وساءهم ، وعضهم ومضهم واشتراكهم في الأنفة والحمية والغضب والمنافسة لمن علا عليهم وقهرهم وبلغ من الدنيا ما لم يبلغوه » .

« فاذا كان هؤلاء - اعني المحرومين - متساوين في المنزلة والمرتبة وتعصب بعضهم لبعض فما ظنك بما اذا كان منهم رجل عظيم القدر جليل الخطر كامل الشرف ، جامع للفضائل ، محتو على الخصائص والمناقب وهو مع ذلك محروم محدود ، وقد جرعته الدنيا علاقها وعلته علالا بعد نهل من صابها وصبرها ولقي منها برحاً بارحاً وجهداً جهيداً وعلا عليه من هو دونه وحكم فيه وفي بيته وأهله ورهطه من لم يكن ما ناله من الامرة والسلطان في حسابه ولا دائراً في خلده ولا خاطراً بباله ولا كان احد من الناس يرتقب ذلك له ولا يراه له . ثم كان في آخر الأمر ان قتل هذا الرجل الجليل في محرابه وقتل بنوه بعده وسبي حريمه ونساؤه وتتبع اهله وبنو عمه بالقتل والطرد والتشريد والسجن مع فضلهم وزهدهم وعبادتهم وسخائهم وانتفاع الخلق بهم ، فهل يمكن ان لا يتعصب البشر كلهم مع هذا الشخص وهل تستطيع القلوب ان لا تحبه ولا تهواه ولا تذوب فيه ، ولا تفنى في عشقه انتصاراً له وحمية من اجله وانفة مما ناله وامتعاضاً مما جرى عليه ؟ وهذا امر مركوز في الطبائع ومخلوق في الغرائز كما يشاهد الناس على الجرف إنساناً قد وقع في الماء العميق وهو لا يحسن السباحة فانهم بالطبع البشري يرقون عليه رقة شديدة وقد يلقي قوم منهم

انفسهم في الماء نحوه ، يطلبون تخليصه ولا يتوقعون على ذلك مجازاة منه بمال او شكر ولا ثواب في الآخرة فقد يكون منهم من لا يعتقد امر الآخرة ولكنها رقة بشرية ، وكان الواحد يتخيل في نفسه انه ذلك الغريق فكما يطلب خلاص نفسه لو كان هذا الغريق كذلك يطلب تخليص من هو في تلك الحال الصعبة للمشاركة الجنسية ، وكذلك لو ان ملكاً ظلم اهل بلد من بلاده ظلماً عنيفاً لكان اهل ذلك البلد يتعصب بعضهم لبعض في الانتصار من ذلك الملك والاستعداد عليه فلو كان من جملتهم رجل عظيم القدر جليل الشأن وقد ظلمه الملك اكثر من ظلمه اياهم واخذ امواله وضياعه وقتل اولاده واهله كان لياذهم به والضواؤهم اليه واجتماعهم والتفافهم به اعظم واعظم لأن الطبيعة البشرية تدعو الى ذلك على سبيل الايجاب الاضطراري ولا يستطيع الانسان منه امتناعاً (١) » .

قال ابن ابي الحديد : « هـذا محصول قول النقيب ابي جعفر (رح) قد حكيته والألفاظ لي والمعنى له ، لاني لا احفظ الآن الفاظه بعينها الا ان هذا هو كان معنى قوله وفحواه » .

---

(١) شرح نهج البلاغة « ج ٢ ، ص ٥٧٦ ـ ٧ » .

٧ ـ نصرة علي للنبي (ﷺ) وتعظيمه إياه

قال ابن ابي الحديد : سألت النقيب ابا جعفر (رح) فقلت له « قد وقفت على كلام الصحابة وخطبهم فلم ار فيهم من يعظم رسول الله (ص) تعظيم هذا الرجل ولا يدعو كدعائه فانا قد وقفنا من نهج البلاغة ومن غيره على فصول كثيرة مناسبة لهذا الفصل (١) تدل على اجلال عظيم وتبجيل شديد منه لرسول الله (ص) .

قال : « ومن ابن لغيره من الصحابة كلام مدون يعلم منه كيفية ذكرهم للنبي (ص) وهل وجد لهم الا كلمات مبتددة لا طائل تحتها ؟ ان علياً كان قوي الايمان برسول الله (ص) والتصديق له ، ثابت اليقين ، قاطعاً بالامر متحققاً له ، وكان مع ذلك يحب رسول الله (ص) لنسبته منه وتربيته له واختصاصه به ، من دون اصحابه ، وبعد فشرفه له لانهما نفس واحدة في جسمين : الاب واحد والدار واحدة والأخلاق متناسبة فاذا عظمه فقد عظم نفسه واذا دعا اليه فقد دعا

---

(١) أشار الى قوله كما في نهج البلاغة في ذكر النبي (ص) « اللهم اقسم له مقسماً من عدلك ، واجزه مضعفات الخير من فضلك ، اللهم وأعل على بناء البانين بناءه واكرم لديك نزله وشرف عندك منزلته وآته الوسيلة وأعطه السناء والفضيلة واحشرنا في زمرته غير خزايا ولا نادمين ولا ناكبين ولا ناكثين ولا ضالين ولا مضلين ولا مفتونين » .

الى نفسه ، ولقد كان يود ان تطبق دعوة الاسلام مشارق الارض ومغاربها ، لان جمال ذلك لا حق به وعائد عليه فكيف لا يعظمه ولا يبجله ولا يجتهد في اعلاء كلمته ؟ » .

قال ابن ابي الحديد : فقلت له « قد كنت اليوم انا وجعفر بن مكي (١) الشاعر، نتجاذب هذا الحديث فقال جعفر: لم ينصر رسول الله (ص) احد نصرة ابي طالب وبنيه له ، اما ابوطالب فكفله ورباه ثم حماه من قريش عند اظهار الدعوة بعد اصفاقهم واطباقهم على قتله واما ابنه جعفر فهاجر بجماعة من المسلمين الى ارض الحبشة فنشر دعوته بها واما علي فانه اقام عماد الملة بالمدينة ثم لم يحل أحد من القتل والهوان والتشريد بما مني به بنو ابي طالب . اما جعفر فقتل يوم مؤتة واما علي فقتل بالكوفة بعد ان شرب نقيع الحنظل وتمنى الموت ولو تأخر قتل ابن ملجم له لمات أسفاً وكمداً ثم قتل ابناه الحسن والحسين بالسم والسيف وقتل بنوه الباقون مع أخيهم بالطف وحملت نساؤهم على الاقتاب سبايا الى الشام ولقيت ذريتهم وأخلافهم بعد ذلك من القتل والصلب والتشريد في البلاد والهوان والحبس والضرب مالا يحيط الوصف بكنهه ، فأي خير اصاب هذا البيت من نصرته

(١) من اعيان الشافعية توفي سنة ٦٣٩ .

ومحبته وتعظيمه بالقول والفعل؟ » .

فقال النقيب (رح) واصاب فيما قال « هلا قلت : يمنون عليك ان اسلموا ، قل لا تمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين . وهلا قلت له : فقد نصرته الانصار وبذلت مهجاً دونه وقتلت بين يديه في مواطن كثيرة وخصوصاً يوم احد ثم اهتضموا بعده واستؤثر عليهم ولقوا من المشاق والشدائد ما يطول شرحه ولو لم يكن الا يوم الحرة فانه اليوم الذي لم يكن في العرب مثله ولا اصيب قوم بمثل ما اصيب به الانصار ذلك اليوم . ان الله زوى الدنيا عن صالحي عباده وأهل الاخلاص له لانه لم يرها ثمناً لعبادتهم ولا كفوا لاخلاصهم وأرجأ جزاءهم الى دار اخرى غير هذه الدار ، في مثلها يتنافس المتنافسون (١) » .

٨ ـ لماذا لم يقتل علي ليلة الهجرة ؟

قال ابن ابي الحديد : وسألت النقيب أبا جعفر يحيى بن ابي زيد الحسني (رح) فقلت « اذا كانت قريش قد محضت رأيها والقى اليها ابليس ـ كما روي ـ ذلك الرأي وهو ان يضربوا النبي (ص) بأسياف

(١) شرح نهج البلاغة « ج ٢ ، ص ٢٢٠ » .

من ايدي جماعة من بطون مختلفة ليضيع دمه ، في بطون قريش، فلا تطلبه بنو عبد مناف ، فلماذا انتظروا به تلك الليلة الصبح ؟ فان الرواية جاءت بأنهم كانوا تسوروا الدار فماينوا فيها شخصاً مسجى بالبرد الحضرمي الأخضر فلم يشكوا انه النبي (ص) فرصدوه الى ان اصبحوا فوجدوه علياً ، وهذا طريف لأنهم كانوا قد اجمعوا على قتله تلك الليلة ، فما بالهم لم يقتلوا ذلك الشخص المسجى ؟ وانتظارهم به دليل على انهم لم يكونوا ارادوا قتله تلك الليلة » .

فقال في الجواب « لقد كانوا هموا من النهار بقتله تلك الليلة وكان إجماعهم على ذلك وعزمهم (١) في حقه من بني عبد مناف ، لأن الذين محضوا هذا الرأي واتفقوا عليه النضر بن الحارث من بني عبد الدار وابو البختري بن هشام وحكيم بن حزام وزمعة بن الأسود بن المطلب ، هؤلاء الثلاثة من بني اسد بن عبد العزى وابو جهل بن هشام واخوه الحارث وخالد بن الوليد بن المغيرة ، هؤلاء الثلاثة من بني مخزوم ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وعمرو بن العاص ،

---

(١) لعل الاصل « وخالفهم في عزمهم في حقه قوم من بني عبد مناف » . أو « وعزم في حقه قوم ... » أي غلبهم ومنعهم أو « وفسخ عزمهم في حقه قوم من بني عبد مناف » .

هؤلاء الثلاثة من بني سهم وامية بن خلف واخوه ابي بن خلف ، هذان من بني جمح . فنمي هذا الخبر من الليل الى عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فلقي منهم قوماً فنهاهم عنه ، وقال : ان بني عبد مناف لا تمسك عن دمه ولكن صفدوه في الحديد واحبسوه في دار من دوركم وتربصوا به ان يصيبه من الموت مثل ما اصاب امثاله من الشعراء . وكان عتبة بن ربيعة سيد بني عبد شمس ورئيسهم وهم من بني عبد مناف ، وبنو عم النبي (ص) ورهطه ، فأحجم أبو جهل واصحابه تلك الليلة عن قتله احجاماً ثم تسوروا عليه وهم يظنونه في الدار فلما رأوا إنساناً مسجى بالبرد الأخضر الحضرمي لم يشكوا انه النبي (ص) وائتمروا في قتله فكان ابو جهل يدسرهم عليه ، فيهمون ثم يحجمون ثم قال بعضهم لبعض : ارموه بالحجارة . فرموه ، فجعل علي يتضور منها ويتقلب ويتأوه تأوهاً خفيفاً ، فلم يزالوا كذلك في اقدام عليه واحجام عنه لما يريده الله تعالى من سلامة علي ونجاته حتى أصبح وهو وقيذ من رمي الحجارة » .

« ولولم يخرج رسول الله (ص) الى المدينة وأقام بمكة ولم يقتلوه تلك الليلة لقتلوه في الليلة التي تليها وان شبت الحرب بينهم وبين بني عبد مناف فان أبا جهل لم يكن بالذي يمسك عن قتله وكان فاقد البصيرة

شديد العزم على الولوغ في دمه ».

قال ابن ابي الحديد : قلت للنقيب « أفعلم رسول الله (ص) وعلي بما كان من بني عتبة بن ربيعة لهم ؟ » . قال : « لا ، انهما لم يعلما ذلك تلك الليلة وانما عرفاه من بعد ، ولقد قال رسول الله (ص) يوم بدر لما رأى عتبة وما كان منه « ان يكن في القوم خير ففي صاحب الجمل الأحمر » . ولو قدرنا ان علياً علم ما قال لهم عتبة لم يسقط ذلك فضيلته في المبيت لأنه لم يكن على ثقة من انهم يقبلون قول عتبة بل كان ظن الهلاك والقتل أغلب . واما (١) حال علي فلما ادى الودائع خرج بعد ثلاث من هجرة النبي (ص) فجاء الى المدينة راجلاً قد تورمت قدماه فصادف رسول الله (ص) نازلاً بقبـاء على كلثوم ابن الهدم فنزل معه في منزله ، وكان أبو بكر نازلاً بقباء في منزل حبيب به يساف ... » .

٩ ـ نخل فدك وفداء أبي العاص

فدك قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة ، أفاءها الله (تعـالى) على رسوله صلحاً فيها عين فوارة ونخل ، واخبارهـا

(١) لا ندري أمن كلام النقيب هذا أم من كلام شارح نهج البلاغة « ج ٣ ص ٢٨٥ » .

مستفيضة في كتب التاريخ ، وقد جرى عليها نزاع بعد وفاة النبي (ص) طالبت بها السيدة فاطمة بنت محمد(ص) فلم تعطها أخذاً بالحديث « انا معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا ارضاً ولا عقاراً ولا داراً ولكنا نورث الايمان من الحكمة والعلم والسنة (١) » .

وقد صارت بحسب هذا الحديث حقاً من حقوق المسلمين كما كان فداء أبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله يوم بدر ، فقد اصيب أبو العاص في الاسرى يوم بدر لأنه خرج مع مشركي قريش ، ولما بعث أهل مكة في فداء اسراهم بعثت زينت بمال في فداء أبي العاص زوجها وكان فيما بعثت به من المال قلادة كانت السيدة خديجة امها البستها اياها ليلة زفافها على زوجها ، فلما رأى النبي (ص) القلادة ـ وهو عارف بها ـ رق لها رقة شديدة وقال للمسلمين « ان رأيتم ان تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها ما بعثت به من الفداء فافعلوا » . فقالوا « نعم يا رسول الله نفديك بأنفسنا وأموالنا » . فردوا عليها ما بعثت به وأطلقوا لها أبا العاص زوجها بغير فداء .

قال ابن أبي الحديد : قرأت على النقيب أبي جعفر هذا الخبر فقال: « أترى أبا بكر وعمر لم يشهدا هذا المشهد ؟ أما كان يقتضي التكرم

(١) شرح نهج البلاغة « ج ٤ ، ص ٨٠ » .

والاحسان أن يطيب أبو بكر قلب فاطمة بفدك ويستوهب(١) لها من المسلمين؟ أتقصر منزلتها عند رسول الله (ص) عن منزلة زينب أختها - وهي سيدة نساء العالمين - هذا اذا لم يثبت لها حق لا بالنحلة ولا بالارث».

فقلت له: «فدك بموجب الخبر الذي رواه أبو بكر قد صار حقاً من حقوق المسلمين فلم يجز له ان يأخذه منهم». فقال: «وفداء أبي العاص بن الربيع قد صار حقاً من حقوق المسلمين وقد أخذه رسول الله (ص) منهم». فقلت «رسول الله (ص) صاحب الشريعة والحكم حكمه وليس ابو بكر كذلك». فقال «أنا ما قلت هلا أخذه أبو بكر من المسلمين قهراً فدفعه الى فاطمة، وانما قلت: هلا استنزل المسلمين عنه واستوهبه منهم لها كما استوهب رسول الله (ص) من المسلمين فداء أبي العاص، أتراه لو قال: هذه فاطمة بنت نبيكم قد حضرت تطلب هذه النخلات، افتطيبون عنها نفساً، أكانوا منعوها ذلك؟». فقلت له «قد قال قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد نحو هذا، قال: إنهما لم يأتيا بحسن في شرع التكرم وان كان ما أتياه حسناً في الدين (٢)».

---

(١) لعل الأصل «ويستوهبها لها من المسلمين». «شرح نهج البلاغة ج ٤، ص ٣٥١».

(٢) الشرح المذكور في الموضع المزبور.

١٠ ـ معاوية يستدرج علياً الى الطعن على الشيخين

كان معاوية بن أبي سفيان في أيام خروجه من الطاعة ومفارقته الجماعة قد كتب الى علي بن أبي طالب كتاباً يستدرجه فيه الى الطعن على الشيخين وبعث أبا أمامة الباهلي به وهو من الصحابة وهذه نسخته :

« من عبدالله معاوية بن أبي سفيان الى علي بن أبي طالب ، أما بعد فان الله ـ تعالى جده ـ اصطفى محمداً ـ عليه السلام ـ لرسالته واختصه بوحيه وتأدية شريعته فأنقذ به من الغواية وهدى به من الغواية ثم قبضه اليه رشيداً حميداً قد بلغ الشرع ومحق الشرك ، وأخمد نار الافك فأحسن الله جزاءه وضاعف عليه نعمه وآلاءه ثم إن الله سبحانه اختص محمداً (ع) بأصحاب أيدوه وآزروه ونصروه وكانوا كما قال الله سبحانه لهم « أشداء على الكفار رحماء بينهم » فكان أفضلهم مرتبة وأعلاهم عند الله والمسلمين الخليفة الأول الذي جمع الكلمة ولم الدعوة وقاتل أهل الردة ثم الخليفة الثاني الذي فتح الفتوح ومصر الأمصار وأذل رقاب المشركين ثم الخليفة الثالث المظلوم الذي نشر الملة وطبق الآفاق بالكلمة الحنيفية ، فلما استوسق الاسلام وضرب بجرانه عدوت عليه فبغيته الغوائل ونصبت له المكايد ،

وضربت له بطن الأمر وظهره ودسست عليه وأغريت به وقعدت حيث استنصرك عن نصره وسألك أن تدركه قبل ان يمزق فما أدركته وما يوم المسلمين منك بواحد : لقد حسدت أبا بكر والتويت عليه ورمت افساد أمره وقعدت في بيتك واستغويت عصابة من الناس حتى تأخروا عن مبيعته ثم كرهت خلافة عمر وحسدته واستطلت مدته وسررت بقتله وأظهرت الشماتة بمصابه حتى إنك حاولت قتل ولده لأنه قتل قاتل أبيه ، ثم لم تكن اشد منك حسداً لابن عمك عثمان : أشرت مقابحه وطويت محاسنه ، وطعنت في فقهه ثم في دينه ثم في سيرته ثم في عقله وأغريت به السفهاء من أصحابك وشيعتك حتى قتلوه بمحضر منك لا تدفع عنه بلسان ولا بيد ، وما من هؤلاء إلا من بغيت عليه وتلكأت في بيعته حتى حملت اليه قهراً ، تساق بخزائم الاقتسار كما يساق الفحل المخشوش ثم نهضت الآن تطلب الخلافة وقتلة عثمان خلصائك وشجراؤك والمحدقون بك ولك من أماني النفوس وضلالات الأهواء فدع اللجاج والعبث جانباً وادفع الينا قتلة عثمان وأعد الأمر شورى بين المسلمين ليتفقوا على من هو لله رضاً ، فلا بيعة لك في أعناقنا ولا طاعة لك علينا ولا عتبي لك عندنا وليس لك ولأصحابك عندي إلا السيف . والله الذي لا آله الا هو لأطلبن

قتلة عثمان أين كانوا وحيث كانوا حتى أقتلهم او تلتحق روحي بالله. فأما ما لا تزال تمن به من سابقتك وجهادك فاني وجدت الله سبحانه يقول « يمنون عليك أن اسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين » . ولو نظرت في حال نفسك لوجدتها أشد الأنفس امتناناً على الله بعملها، واذا كان الامتنان يبطل أجر الصدقة فالامتنان على الله يبطل أجر الجهاد ويجعله كصفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين » .

فلما وصل هذا الكتاب الى علي مع أبي امامة الباهلي كتب اليه جواباً هذه نسخته :

« أما بعد فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمداً (ص) لدينه وتأييده إياه بمن أيده من أصحابه ، فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً ، إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله تعالى عندنا ونعمته علينا في نبينا فكنت في ذلك كناقل التمر الى هجر ، أوداعي مسدده الى النضال (١) ، وزعمت أن افضل الناس في الاسلام فلان وفلان فذكرت أمراً ان تم

(١) اشارة الى قول الشاعر الأول :

اعله الرماية كل يوم فلما استد ساعده رماني

اعتزلك كله وان نقص لم يلحقك ثلمه ، وما أنت والفاضل والمفضول والسائس والمسوس وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم ؟ هيهات ، لقد حن قدح ليس منها وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها . الا تربع أيها الانسان على ظلعك (١) وتعرف قصور ذرعك وتتأخر حيث أخرك القدر ، فما عليك غلبة المغلوب ولا ظفر الظافر ، فانك لذهاب في التيه رواغ عن القصد الا ترى (غير مخبرلك ولكن بنعمة الله احدث) ان قوماً استشهدوا في سبيل الله تعالى من المهاجرين والأنصار ولكل فضل حتى اذا استشهد شهيدنا قيل سيد الشهداء ، وخصه رسول الله (ص) بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه ؟ أولا ترى ان قوماً قطعت ايديهم في سبيل الله ولكل فضل حتى اذا فعل بواحدنا ما فعل بواحدهم قيل الطيار في الجنة وذو الجناحين . ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجها آذان السامعين فدع عنك من مالت به الرميـة (٢) فانا صنائع ربنا (٣)

---

(١) أي ألا ترفق بنفسك وتكف ولا تحملها ما لا تطيقه .

(٢) أي دع ذكر من مال الى الدنيا ومالت به أي أمالته الدنيا اليها .

(٣) أي ليس لأحد من البشر علينا نعمة بل الله تعالى هو الذي أنعم علينا .

والناس بعد صنائع لنا ، لم يمنعنا قديم عزنا ولا عادي طولنا على قومك ان خلطناكم بأنفسنا فنكحنا وانكحنا فعل الأكفاء ولستم هناك وانى يكون ذلك كذلك ومنا النبي ومنكم المكذب ؟ ومنا اسد الله ومنكم اسد الأحلاف ؟ ومنا سيد اشباب اهل الجنة ومنكم صبية النار ومنا خير نساء العالمين ومنكم حمالة الحطب ، فى كثير مما لنا وعليكم فاسلامنا ما قد سمع وجاهليتنا لا تدفع وكتاب الله يجمع لنا ما شذ عنا وهو قوله سبحانه وتعالى « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » . وقوله تعالى « إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين » فنحن مرة اولى بالقرابة وتارة أولى بالطاعة ، ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله (ص) فلجوا عليهم فان يكن الفلج به فالحق لنا دونكم وان يكن بغيره فالأنصار على دعواهم . وزعمت اني لكل الخلفاء حسدت وعلى كلهم بغيت فان يكن ذلك كذلك فليس الجناية عليك فيكون العذر لك « وتلك شكاة ظاهر عنك عارها » . وقلت : اني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع . ولعمر الله لقد أردت ان تذم فمدحت وان تفضح فافتضحت ، وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه ولا مرتاباً بيقينه ، وهذه

حجتي الى غيرك قصدها ولكني أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها ، ثم ذكرت ما كان من أمري وامر عثمان فلك ان تجاب عن هذه لرحمك منه فأينا كان اعدى له واهدى الى مقاتله (١) ؟ أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه ام من استنصره فتراخى عنه وبث المنون اليه حتى اتى قدره عليه ؟ كلا والله « لقد علم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا » . وما كنت لاعتذر من اني كنت انقم عليه احداثاً فان كان الذنب اليه ارشادي وهدايتي له فرب ملوم لا ذنب له « وقد يستفيد الظنة المتنصح » « وما أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب » . وذكرت أنه ليس لي ولأصحابي عندك الا السيف ، فلقد اضحكت بعد استعبار ! متى الفيت بني عبدالمطلب عن الأعداء ناكلين وبالسيف مخوفين « فلبث قليلاً يلحق الهيجا

---

(١) من كلامه لعبدالله بن العباس وقد جاءه برسالة من عثمان وهو محصور يسأله فيها الخروج الى ماله ينبع ليقل هتف الناس باسمه للخلافة ، بعد أن كان سأله مثل ذلك من قبل « يا ابن عباس . ما يريد عثمان الا أن يجعلني جملا ناضحاً بالغرب ، أقبل وادبر : بعث الي أن اخرج ثم بعث الي ان اقدم ثم هو الآن يبعث الي أن اخرج ، والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن اكون آثماً » « شرح النهج ج ٢ ، ص ٣٨٢ » .

حمل (١) » . فسيطلبك من تطلب ويقرب منك ما تستبعد وانا مرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان ، شديد زحامهم ، ساطع قتامهم ، متسربلين سرابيل الموت ، أحب اللقاء اليهم لقاء ربهم وقد صحبتهم ذرية بدرية وسيوف هاشمية قد عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدك وأهلك (وما هي من الظالمين ببعيد) » .

قال ابن ابي الحديد : سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن ابي زيد فقلت له : أرى هذا الجواب منطبقاً على كتاب معاوية الذي بعثه مع أبي مسلم الخولاني الى علي فان كان هذا هو الجواب فالجواب الذي ذكره ارباب السيرة واورده نصر بن مزاحم في كتاب صفين إذن غير صحيح وان كان ذلك الجواب فهذا الجواب غير صحيح ولا ثابت » .

فقال لي « بل كلاهما ثابت مروي وكلاهما كلام أمير المؤمنين علي والفاظه » . ثم أمرني ان اكتب ما يمليه علي فكتبته ، قال (رح) :

---

(١) هذا انه مثل ومعناه « اصبر حتى يلحق من له العناية بالامر » فليس الامر امرك . وفي جمهرة الامثال « لبث رويداً يلحق الهيجا حمل » قال ابو هلال والهيجا اسم رجل .

« كان معاوية يتسقط علياً وينعى عليه ما عساه يذكره من حال ابي بكر وعمر وانهما غصباه حقه ، ولا يزال يكيده بالكتاب يكتبه والرسالة يبعث بها ، يطلب غرته لينفث بما في صدره من حال ابي بكر وعمر إما مكاتبة او مراسلة ، فيجعل ذلك حجة عليه عند اهل الشام ويضيفه الى ما قرره في انفسهم من ذنوبه ، كما زعم ، فقد كان غمصه عندهم بأنه قتل عثمان ومالأ على قتله وانه قتل طلحة والزبير وامر عائشة واراق دماء اهل البصرة وبقيت خصلة واحدة وهي ان يثبت عندهم انه يتبرأ من ابي بكر وعمر وينسبهما الى الظلم ومخالفة الرسول في أمر الخلافة وانهما وثبا عليها غلبة وغصباه اياها ، فتكون هذه الطامة الكبرى ليست مقتصرة على فساد أهل الشام عليه بل وأهل العراق الذين هم جنده وبطانته وأنصاره لأنهم كانوا يعتقدون امامة الشيخين إلا القليل الشاذ من خواص الشيعة ، فلما كتب معاوية ذلك الكتاب مع أبي مسلم الخولاني قصد أن يغضب علياً ويحرجه ويحوجه إذا قرأ ذكر ابي بكر وانه أفضل المسلمين الى أن يخلط خطه في الجواب بكلمة تقتضي طعناً في أبي بكر ، فكان الجواب مجمجماً غير بين ، ليس فيه تصريح بالتظليم لهما ولا التصريح ببراءته منهما وتارة يترحم عليهما وتارة يقول « أخذا حقي وقد تركته لهما » . فأشار

عمرو بن العاص على معاوية ان يكتب كتاباً ثانياً مناسباً للكتاب الأول ليستفزا فيه علياً ويستخفاه ويحمله الغضب منه أن يكتب كلاماً يتعلقان به في تقبيح حاله وتهجين مذهبه وقال له عمرو « إن علياً رجل نزق تياه وما استطعمت منه الكلام بمثل تقريظ ابي بكر وعمر فاكتب » . فكتب كتاباً أنفذه اليه مع أبي امامة الباهلي وهو من الصحابة بعد أن عزم على بعثته مع أبي الدرداء فلما وصل هذا الكتاب الى علي كلم أبا امامة بنحو ما كلم به أبا مسلم الخولاني وكتب معه هذا الجواب . وفي كتاب معاوية هذا ذكر لفظ « الجمل المخشوش » أو « الفحل المخشوش » لا في الكتاب الواصل مع أبي مسلم وليس في ذلك هذه اللفظة وانما فيه « حسدت الخلفاء وبغيت عليهم ، عرفنا ذلك من نظرك الشزر وقولك الهجر وتنفسك الصعداء وابطائك عن الخلفاء » . وانما كثير من الناس لا يعرفون الكتابين ، والمشهور عندهم كتاب ابي مسلم ، فيجعلون هذه اللفظة فيه والصحيح انها في كتاب أبي امامة ، الا تراها عادت في جوابه ولو كانت في كتاب ابي مسلم لعادت في جوابه (١) » .

---

(١) شرح النهج « ج ٣ ، ص ٤٤٥ ـ ٩ » .

١١ ـ الاشفاق على الخلافة

لما توفي النبي (ص) اجتمعت الأنصار الى سعد بن عبادة ، فأتاهم ابو بكر وعمر وابو عبيدة ، فقال الحباب بن المنذر « منا أمير ومنكم امير ، أنا والله ما ننفس هذا الأمر عليكم ايها الرهط ولكنا نخاف أن يليه بعدكم من قتلنا آباءهم وأبناءهم واخوانهم » . فقال عمر بن الخطاب « اذا كان ذلك قمت ان استطعت » . فتكلم ابو بكر فقال « نحن الأمراء وأنتم الوزراء والأمر بيننا نصفان كشق الابلمة » . فبويع . وكان اول من بايعه بشير بن سعد والد النعمان بن بشير ، فلما اجتمع الناس على ابي بكر قسم قسماً بين نساء المهاجرين والأنصار فبعث الى امراة من بني عدي بن النجار بقسمها مع زيد بن ثابت ، فقالت : ما هذا ؟ قال: قسم قسمه ابو بكر للنساء . قالت: أتراشوني عن ديني والله لا اقبل منه شيئاً . فردته عليه .

قال ابن ابي الحديد « قرأت هذا الخبر على ابي جعفر يحيى بن محمد العلوي الحسني المعروف بابن ابي زيد ، نقيب البصرة (رح) سنة عشر وستمائة ، من كتاب السقيفة لأحمد بن عبدالعزيز الجوهري » . قال « لقد صدقت فراسة الحباب فان الذي خافه وقع يوم الحرة واخذ

من الأنصار ثأر المشركين يوم بدر . ومن هذا خاف ايضاً رسول الله (ص) على ذريته وأهله فانه كان (ص) قد وتر الناس وعلم انه ان مات وترك ابنته وولدها سوقة ورعية تحت ايدي الولاة كانوا بعرض خطر عظيم ، فما زال يقرر لابن عمه قاعدة الأمر بعده حفظاً لدمه ودماء اهل بيته فانهم اذا كانوا ولاة الأمر كانت دماؤهم اقرب الى الصيانة والعصمة مما اذا كانوا سوقة تحت يد وال من غيرهم فلم يساعده القضاء والقدر وكان من الأمر ما كان ثم افضى أمر ذريته فيما بعد الى ماقد علمت (١) » .

١٢ - حرص بني امية على الخلافة

جاء في الأخبار ان الوليد بن عبدالملك ضرب علي بن عبدالله بن العباس بالسياط وشهره بين الناس فكان يدار به على بعير ووجهه مما يلي ذنب البعير وصائح يصيح أمامه « هذا علي بن عبدالله الكذاب » فقال له قائل - وهو على تلك الحال - ما الذي نسبوك اليه من الكذب يا أبا محمد ؟ قال : بلغهم قولي ان هذا الأمر سيكون في ولدي . والله ليكونن فيهم حتى يملكه عبيدهم الصغار العيون العراض الوجوه الذين

(١) شرح النهج « ج ١ ، ص ١٣٣ » .

كأن وجوههم المجان المطرقة .

وروي أن علي بن عبدالله بن العباس دخل على هشام ومعه ابنا ابنه أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور فكلمه فيما اراد ثم ولى فقال هشام : إن هذا الشيخ قد خرف واختل وخلط : يقول « إن هذا الأمر سينتقل الى ولده » . فسمع علي بن عبدالله كلامه ، فالتفت اليه وقال : اي والله ليكونن ذلك وليملكن هذان .

قال ابن أبي الحديد : سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد (رح) فقلت له : من أي طريق عرف بنو امية ان الأمر سينتقل عنهم وأنه سيليه بنو هاشم ، وأول من يلي منهم يكون اسمه « عبدالله » ومنعوهم عن منا كحة بني الحارث بن كعب لعلمهم أن اول من يلي الأمر من بني هاشم تكون أمه حارثية ؟ وبأي طريق عرف بنو هاشم أن الأمر سيصير اليهم ويملكه عبيد أولادهم حتى عرفوا صاحب الأمر منهم بعينه - كما قد جاء في هذا الخبر - ؟

فقال النقيب أبو جعفر : « أصل هذا كله محمد بن الحنفية ثم ابنه عبدالله المكني بأبي هاشم » .

قلت له « أفكان محمد بن الحنفية مخصوصاً من أمير المؤمنين (ع) بعلم يستأثر به على أخويه حسن وحسين ؟ » قال : « لا ولكنهما كتما

وأذاع . قد صحت الرواية (١) عندنا عن اسلافنا عن غيرهم من أرباب الحديث ان علياً لما قبض أتى محمد ابنه الى اخويه الحسن والحسين فقال لهما : اعطياني ميراثي من ابي . فقالا له : قد علمت ان أباك لم يترك صفراء ولا بيضاء . فقال : قد علمت ذلك وليس ميراث المال اطلب انما اطلب ميراث العلم . فدفعا اليه صحيفة لو اطلعاه على اكثر منها لهلك ، فيها ذكر دولة بني العباس وقد روى أبو الحسن علي بن محمد النوفلي قال حدثني عيسى بن علي بن عبدالله بن عباس قال : لما اردنا الهرب من مروان بن محمد لما قبض على ابراهيم الامام جعلنا نسخة الصحيفة التي دفعها ابوهاشم بن محمد ابن الحنفية الى محمد بن علي بن عبدالله بن عباس وهي التي كان آباؤنا يسمونها « صحيفة الدولة » في صندوق من نحاس صغير ثم دفناه تحت زيتونات بالشراة لم يكن بالشراة من الزيتون غيرهن ، فلما أفضى السلطان الينا وملكنا الأرض ارسلنا الى ذلك الموضع فبحث وحفر فلم يوجد فيه شيء فأمرنا بحفر جريب من الأرض في ذلك الموضع حتى بلغ الحفر الماء ولم نجد شيئاً . وقد كان محمد بن الحنفية صرح بالأمر لعبدالله بن العباس وعرفه تفصيله ولم يكن امير المؤمنين قد فصل لعبدالله بن

(١) عن أبان بن عثمان عن جعفر بن محمد الصادق .

العباس الأمر، وانما اخبره مجملاً كقوله «خذ اليك ابا الاملاك(١)» ونحو ذلك مما كان يعرض له به ولكن الذي كشف القناع وابرز المستور عليه هو محمد بن الحنفية وكذلك ايضاً ما وصل الى بني امية من علم هذا الأمر فانه وصل من جهة محمد بن الحنفية واطلعهم على السر الذي علمه ولكن لم يكشف لهم كشفه لبني العباس فان كشفه لبني العباس كان اكمل. فأما ابو هاشم فانه قد كان افضى بالأمر الى محمد بن علي بن عبدالله بن العباس واطلعه عليه واوضحه له فلما حضرته الوفاة عقيب انصرافه من عند الوليد بن عبدالملك مر بالشراة وهو مريض ومحمد بن علي بها فدفع اليه كتبه وجعله وصيه وامر الشيعة بالاختلاف اليه، وحضر وفاة ابي هاشم ثلاثة نفر من بني هاشم محمد بن علي هذا ومعاوية بن عبدالله بن جعفر بن ابي طالب وعبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فلما مات خرج محمد بن علي ومعاوية بن عبدالله بن جعفر من عنده وكل واحد منهما يدعي وصايته فأما عبدالله بن الحارث فلم يقل شيئاً. وصدق محمد بن علي انه اليه اوصى

---

(١) يعني أنه لما ولد له ولد ذكر وأتى به علياً وطلب اليه ان يسميه أخذه وحنكه ودعا له ثم رده اليه وقال «خذ اليك أبا الأملاك، قد سميته علياً وكنيته أبا الحسن».

ابو هاشم واليه دفع كتاب الدولة وكذب معاوية بن عبدالله بن جعفر لكنه قرأ الكتاب فوجد لهم ذكراً يسيراً فادعى الوصية بذلك فمات وخرج ابنه عبدالله بن معاوية يدعي وصاية ابيه ويدعي لأبيه وصاية ابي هاشم ويظهر الانكار على بني امية وكان له في ذلك شيعة يقولون بامامته سراً حتى قتل (١) ».

١٣ ـ جلد عظام هشام بن عبدالملك

خرج عبدالله بن علي العباسي عم أبي العباس السفاح في خلافة هذا لنبش قبور بني امية بالشام (٢) فانتهى الى قبر هشام بن عبد الملك فاستخرجه صحيحاً لم يذهب الا عرنين انفه ، فضربه عبدالله بن علي ثمانين سوطاً ثم احرقه ، حفر قبر سليمان بن عبدالملك من أرض دابق فلم يجد منه شيئاً الا صلبه « عموده الفقاري » ورأسه وأضلاعه فأحرقه وفعل مثل ذلك بغيرهما من بني امية وكانت قبورهم بقنسرين ثم انتهى عبدالله الى دمشق فنبش قبر الوليد بن عبدالملك

---

(١) شرح الهج « ج ٢ ، ص ٢١١ ـ ٢ » .

(٢) ولما استولى هولاكو على بغداد سنة « ٦٥٦ » نبش قبور بني العباس ونساءهم بالرصافة جنوبي الأعظمية وأحرقها ، وذلك من اعجب الحوادث .

فما وجد فيه قليلاً ولا كثيراً واحتفر عن عبدالملك بن مروان فما وجد الا شؤون رأسه ثم احتفر عن يزيد بن معاوية فلم يجد منه الا عظماً واحداً ووجد من موضع نحره الى قدمه خطاً واحداً اسود كأنما خط بالرماد في طول لحده . وتتبع عبدالله قبورهم في جميع البلدان فأحرق ما وجد فيها منهم .

روى هذا الخبر ابو الحسن المسعودي في مروج الذهب ونقله من كتابه ابن أبي الحديد وقال : « قرأت هذا الخبر على النقيب ابي جعفر يحيى بن ابي زيد العلوي في سنة خمس وستمائة ، وقلت : اما احراق هشام باحراق زيد بن علي بن الحسين ففهوم ، فما معنى جلده ثمانين سوطاً ؟ » . فقال (رح) : « اظن عبدالله بن علي ذهب في ذلك الى حد القذف لأنه يقال ان هشاماً قال لزيد بن علي « يا ابن الزانية » لما سب اخاه محمداً الباقر ، فسبه زيد وقال له « سماه رسول الله (ص) الباقر وتسميه انت البقرة ، لشد ما اختلفتما ولتخالفنه في الآخرة كما في خالفته في الدنيا فيرد الجنة وترد النار (١) » .

قال ابن ابي الحديد : وهذا استنباط لطيف (٢) .

---

(١) راجع شرح نهج البلاغة « ج ١ ، ص ٣١٥ » .

(٢) شرح النهج « ج ٢ ، ص ٢٠٥ » .

١٤ ـ أخو النبي (ﷺ) في الجاهلية

اسند الرواة خبراً الى الامام علي بن ابي طالب انه قال : قال رسول الله (ص) « قال لي جبرائيل ان الله مشفعك في ستة : بطن حملتك آمنة بنت وهب وصلب انزلك عبدالله بن عبدالمطلب وحجر كفلك ابي طالب وبيت آواك عبدالمطلب . وأخ كان لك في الجاهلية . قيل يا رسول الله : وما كان فعله ؟ قال: كان سخياً يطعم الطعام ويجود بالنوال . وثدي ارضعتك حليمة بنت ابي ذؤيب » .

قال ابن ابي الحديد : سألت النقيب أبا جعفر عن هذا الخبر وقد قرأته عليه : هل كان لرسول الله (ص) أخ من ابيه او من امه او منهما في الجاهلية ؟ » فقال « لا انما يعني اخاً له في المودة والصحبة » قلت « فمن هو؟ » قال: « لا ادري (١) » .

قال مصطفى جواد مصنف هذا الكتاب : لا شك في ان النبي (ص) لم يرد بقوله ذاك اخاه من الرضاعة وهو ابن حليمة بنت ابي ذؤيب السعدية المستفيض خبره في كتب السيرة النبوية ، لأن النبي لم يبق معه مدة يصح معها ان يقال انه صار سخياً مطعاماً ، ولا ميسرة غلام السيدة خديجة لأن صداقته له كانت حديثة . ولا

(١) شرح النهج « ج ٢ ، ص ٣١١ » .

يتبادر الى الذهن الا انه عنى صديقه حين كان يرعى غنماً فقد روى الطبري يرفعه الى الامام علي بن ابي طالب قال : سمعت رسول الله (ص) يقول « ما هممت بشيء مما كان اهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما اريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء حتى اكرمني الله - عز وجل - برسالته فانني قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمي حتى ادخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب . فقال : افعل فخرجت أريد ذلك حتى جئت اول دار من دور مكة فسمعت عزفاً بالدفوف والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا فلان بن فلان تزوج بفلانة بنت فلان . فجلست انظر اليهم ، فضرب الله على اذني ، فنمت فما ايقظني إلا مس الشمس . فجئت صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ قلت : ما صنعت شيئاً . ثم اخبرته الخبر ثم قلت له ليلة اخرى مثل ذلك . فقال : افعل ، فخرجت فسمعت حين جئت مكة مثل ما سمعت حين دخلت مكة تلك الليلة ، فجلست أنظر فضرب الله على اذني ، فوالله ما ايقظني إلا مس الشمس فرجعت الى صاحبي فأخبرته الخبر ثم ما هممت بعدها بسوء (١) .

---

(١) تاريخ الامم والملوك « ج ٢ ص ١٦٦ » من طبعة المطبعة الحسينية بمصر .

١٥ ـ أبو حيان التوحيدي والمفاضلة بين علي وجعفر

أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي كان من نوابغ الكتاب وكبار المدققين ومهرة الوضاعين ، قسا عليه الزمن فقسا هو على أبنائه ، وحارفه الدهر بشر فانحرف عن الجدد وزاغ عن القصد ، وتسخط الدولة التي عاصرها دولة بني بويه فأبغضها وذم مذهبها ومن هنا جاءته كراهته للامام علي بن أبي طالب ، ولم يسترح في زمانه الا الى ابي عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان العارض الوزير وكان وزيراً ظالماً سيء التدبير آل أمره الى القتل ، واتصال الانسان برجال الظلم واصحاب الجور اعانة على النفس واستجلاب للكره والمكروه عليها واستدبار لأمرها ، فلم يزدد ابو حيان باستراحته الى ذلك الظالم إلا تشنيع الناس عليه وتسميعهم به وبغضهم له ، ولما ندم ابو حيان على تخليده كثيراً من الكذب بطون الكتب أحرق بعضها وغسل بعضاً بالماء وقال « اسأل الله ـ تعالى ـ رب الأولين ان يجعل اعترافي بما اعرفه موصولاً بنزوعي عما اقترفه ، انه قريب مجيب (١) » .

وقد روى ابو حيان رسالة ابي بكر الى علي وجوابه عنها ،

---

(١) معجم الادباء لياقوت الحموي « ج ٥ ، ص ٣٨٩ » .

وفي الرسالتين ما يستحيل معه نسبتها اليهما من غليظ القول وصريح السباب وبذيء التعريض ، ومنكر التنديد ، وقد نقل ابن ابي الحديد الرسالتين وقال « الذي يغلب على ظني ان هذه المراسلات والمحاورات والكلام كله مصنوع موضوع وانه من كلام ابي حيان التوحيدي لأنه بكلامه ومذهبه في الخطابة والبلاغة اشبه، وقد حفظنا كلام عمر ورسائله وكلام ابي بكر وخطبه فلم نجدها يذهبان هذا المذهب ولا يسلكان هذا السبيل في كلامهما وهذا كلام عليه أثر التوليد ليس يخفى واين ابو بكر وعمر من البديع وصناعة المحدثين ؟ ومن تأمل كلام ابي حيان عرف ان هذا الكلام من ذلك المعدن خرج ، ويدل عليه انه اسنده الى القاضي ابي حامد المروروذي وهذه عادته في كتاب « البصائر » يسند الى القاضي ابي حامد كل ما يريد ان يقوله هو من تلقاء نفسه اذا كان كارهاً لأن ينسب اليه وانما ذكرناه نحن في هذا الكتاب لأنه وان كان عندنا موضوعاً منحولا فانه صورة ما جرت عليه حال القوم فهم وان لم ينطقوا به بلسان المقال فقد نطقوا به بلسان الحال ومما يوضح لك انه مصنوع ان المتكلمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والأشعرية واصحاب الحديث وكل من صنف في علم الكلام والامامة لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من

هذه الحكاية ولقد كان الشريف الرضي (رح) يلتقط من كلام أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ اللفظة الشاذة والكلمة المفردة الصادرة عنه في معرض التألم والتظلم فيحتج بها ويعتمد عليها ... وكان الرضي اذا ظفر بكلمة من هذه فكأنما ظفر بملك الدنيا ويودعها كتبه وتصانيفه فأين كان الرضي عن هذا الحديث وهلا ذكر الشريف المرتضى في كتاب « الشافي في الامامة » كلام امير المؤمنين هذا وكذلك من قبله من الامامية كابن النعمان وبني نوبخت وبني بابويه وغيرهم وكذلك من جاء بعده من متأخري متكلمي الشيعة واصحاب الأخبار والحديث منهم الى وقتنا هذا واين كان اصحابنا المعتزلة عن كلام ابي بكر وعمر له ؟ وهلا ذكر ذكره قاضي القضاة عبدالجبار في كتاب « المغني » مع احتوائه على كل ما جرى بينهم حتى انه يمكن ان يجمع منه تاريخ كبير مفرد في اخبار السقيفة وهلا ذكره من كان قبل قاضي القضاة من مشايخنا واصحابنا ومن جاء بعده من متكلمينا ورجالنا ؟ وكذلك القول في متكلمي الأشعرية واصحاب الحديث كابن الباقلاني وغيره وكان ابن الباقلاني شديداً على الشيعة عظيم العصبية على امير المؤمنين علي ، فلو ظفر بكلمة من كلام ابي بكر وعمر في هذا الحديث لملأ الكتب والتصانيف بها وجعلها هجيراه ودأبه . والأمر فيما ذكرناه من وضع

هذه القصة ظاهر لمن عنده ادنى ذوق من علم البيان ومعرفة كلام الرجال ولمن عنده ادنى معرفة بعلم السير واقل انس بالتواريخ (١) ».

وكلام ابن ابي الحديد هـذا ظاهر السداد مؤيد الحجج ناطق الأدلة واضح البرهان فالتوليد والاختلاق بينان في الذي ادعى ابو حيان روايته ، ولـكنه استمد فيه من كتب معاوية الى علي وليت ابن ابي الحديد راعى هذه الضوابط وقاس بهذه المقاييس في كلام آخر رواه ابو حيان ونقله هو في شرحه ، وائر الوضع عليه ظاهر قال :

« قرأت في كتاب صنفه ابو حيان التوحيدي في « تقريظ الجاحظ » قال : نقلت من خط الصولي : قال الجاحظ ان العباس بن عبد المطلب اوصى علي بن ابي طالب في علتـه التي مات فيها فقال : « أي بني اني مشف على الظعن عن الدنيا الى الله الذي فاقتي الى عفوه وتجاوزه اكثر من حاجتي الى ما انصحك فيه واشير عليك به ، ولكن العرق يبوض والرحم عروض واذا قضيت حق العمومة فلا ابالي بعد . إن هذا الرجل - يعني عثمان - قد جاءني مراراً بحديثك وناظرني ملاينا ومخاشنا في أمرك ولم اجد (منه) عليك الا مثل ما أجد منك عليه ولا رأيت منه لك الا مثل ما اجد منك له ، ولست تؤتى من قلة علم

(١) شرح النهج « ج ٢ ، ص ٥٩٢ - ٧ » .

ولكن من قلة قبول ومع هذا كله فالرأي الذي اودعك به ان تمسك عنه لسانك ويدك وهمزك وغمزك فانه لا يبدؤك مالم تبدأه ولا يجيبك عما لم يبلغه وانت المتجني وهو المتأني وانت العائب وهو الصامت ، فان قلت : كيف هذا وقد جلس مجلساً انا احق به ؟ فقد قاربت ولكن ذاك بما كسبت يداك ونكص عنه عقباك ، لانك بالأمس الادنى هرولت اليهم تظن انهم يحلون جيدك ويختمون اصبعك ويطأون عقبك ويرون الرشد بك ويقولون : لابد لنا منك ولا معدل لنا عنك . وكان هذا من هفواتك الكبر وهناتك التي ليس لك منها عذر والآن بعدما ثللت عرشك بيدك ونبذت رأي عمك في البيداء يتدهده في السافياء خذ بأحزم مما يتوضح به وجه الامر: لا تشار هذا الرجل ولا تماره ولا يبلغه عنك ما يحمقه عليك فانه ان كاشفك اصاب انصاراً وان كاشفته لم تر الا ضراراً ولم تستلج الا عثاراً واعرف من هو بالشام له ومن ههنا حوله ممن يطيع امره ويمتثل قوله ولا تغتر بناس يطيفون بك ، ويدعون الحنو عليك والحب لك فانهم بين مولى جاهل وصاحب متمن وجليس يرعى العين ويبتدر المحضر ولو ظن الناس بك ما تظن بنفسك لكان الامر لك والزمام في يدك ولكن هذا حديث يوم مرض رسول الله (ص) فات ثم حرم الكلام فيه حين مات ، فعليك

الآن بالعزوف عن شيء عرضك له رسول الله (ص) فلم يتم وتصديت له مرة بعد مرة فلم يستقم ومن ساور الدهر غلب ومن حرص على ممنوع تعب فعلى ذلك فقد اوصيت عبدالله بطاعتك وبعثته على متابعتك واوجرته محبتك ووجدت عنده من ذلك ظني به لك. لا توتر قوسك الا بعد الثقة بها واذا احببتك فانظر الى سيتها نم لا تفوق الا بعد العلم ولا تغرق في النزع الا لتصيب الرمية وانظر لا تطرف بعينك عينك ولا تجن شمالك شينك، ودعني بآيات من آخر سورة الكهف وقم اذا بدالك (١)».

فكيف جاز هذا الاسلوب البياني المطنب فيه ذو الانشاء الصناعي المزوق والاستعارات الكثيرة والكنايات الغريبة والتراكيب المولدة والسجعات المرددة على ابن ابي الحديد؟

قال ابن ابي الحديد: قلت للشريف ابي جعفر النقيب «قد وقفت لأبي حيان التوحيدي في كتاب «البصائر» على فصل عجيب يمازج ما نحن فيه (٢)، قال في الجزء الخامس من هذا الكتاب:

---

(١) شرح النهج «ج ٣، ص ٢٨٢ - ٣».

(٢) كان كلامهم في المفاضلة بين علي من جهة وحمزة وجعفر من جهة اخرى. وقد نقلناه سابقاً.

سمعت قاضي القضاة أبا سعد بشر بن الحسين - وما رأيت رجلاً اقوى منه في الجدل - في مناظرة جرت بينه وبين ابي عبدالله الطبري ، وقد جرى حديث جعفر بن ابي طالب وحديث اسلامه والتفاضل بينه وبين اخيه علي ، فقال القاضي أبو سعد : اذا انعم النظر فان اسلام جعفر كان بعد بلوغ واسلام البالغ لا يكون الا بعد استبصار وتبين ومعرفة بقبح ما يخرج منه وحسن ما يدخل فيه وان اسلام علي مختلف في حاله وذلك انه قد ظن انه كان عن تلقين لا تبيين الى حين بلوغه واوان تعقبه ونظره وقد علم ايضاً انهما قتلا وان قتلة جعفر شهادة بالاجماع وقتلة علي فيها أشد الاختلاف ثم خص الله جعفراً بأن قبضه الى الجنة قبل ظهور التباين واضطراب الحبل وكثرة الهرج وعلى انه لو انعقد الاجماع وتظاهر جميع الناس على ان القتلتين شهادة لكانت الحال التي رفع اليها جعفر اغلظ واعظم وذلك انه قتل مقبلا غير مدبر واما علي فانه اغتيل اغتيالاً وقصد من حيث لا يعلم وشتان ما بين من فوجيء بالموت ومن عاين مخايل الموت وتلقاه بالنحر والصدر وعجل الى الله بالايمان والصدق ، الا تعلم ان جعفراً قطعت يمناه فأمسك اللواء بيسراه وقطعت يسراه فضم اللواء الى حشاه ؟ ثم قاتله ظاهر الشرك بالله وقاتل علي ممن صلى الى القبلة وشهد

الشهادة واقدم عليه بتأويل وقاتل جعفر كافر بالنص الذي لا خلاف فيه اما تعلم ان جعفراً ذو الجناحين وذو الهجرتين الى الحبشة والمدينة ؟ ».

قال النقيب (رح) « فداك شيخك ان أبا حيان رجل ملحد زنديق ، يحب التلاعب بالدين ويخرج ما في نفسه فيعزوه الى قوم لم يقولوه وأقسم بالله ان القاضي أبا سعد لم يقل من هذا الكلام لفظة واحدة ولكنها من موضوعات ابي حيان واكاذيبه وترهاته كما يسند الى القاضي ابي حامد المروروذي كل منكر ويروي عنه كل فاقرة ».

« يا ابا حيان مقصودك ان تجعلها مسألة خلاف تثير بها فتنة بين الطالبيين لتجعل بأسهم بينهم ، وكيف تقلبت الأحوال فالفخر لهم لم يخرج عنهم ».

ثم ضحك النقيب (رح) حتى استلقى ومد رجليه وقال « هذا كلام يستغنى عن الاطالة في ابطاله باجماع المسلمين ، فانه لا خلاف بين المسلمين في ان علياً افضل من جعفر وانما سرق ابو حيان هذا المعنى الذي اشار اليه من رسالة المنصور ابي جعفر الى محمد بن عبدالله النفس الزكية . قال له : وكانت بنو امية يلعنون ابالك في ادبار الصلوات المكتوبات كما يلعن الكفرة فعنفناهم وكفرناهم وبينا فضله واشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة وظنت انه لما ذكرناه من فضله انا

قدمناه على حمزة والعباس وجعفر ! اولئك مضوا سالمين مسلمين منهم وابتلي ابوك بالدماء » .

فقلت له : واذن لا اجماع في المسألة لأن المنصور لم يقل بتفضيله عليهم ، وانت ادعيت الاجماع . فقال : ان الاجماع قد سبق هذا القائل ، وكل قول قد سبقه الاجماع لا يعتد به .

فلما خرجت من عند النقيب أبي جعفر بحثت في ذلك اليوم في هذا الموضع مع أحمد (١) بن جعفر الواسطي (رح) وكان ذا فضل وعقل وكان امامي المذهب فقال لي : صدق النقيب فيما قال ، ألست تعلم ان اصحابكم المعتزلة على قولين احدهما ان اكثر المسلمين ثواباً ابو بكر والآخر ان اكثرهم ثواباً علي ، واصحابنا الامامية يقولون ان اكثر المسلمين ثواباً علي وكذلك الزيدية وأما الأشعرية والكرامية وأهل الحديث فيقولون اكثر المسلمين ثواباً ابو بكر ، فقد خلص من مجموع هذه الأقوال ان ثواب حمزة وجعفر دون ثواب علي ، أما

---

(١) كان ذلك بين سنة « ٦٠٥ » وسنة « ٦١٠ » وأحمد بن جعفر هذا ظاهر أمره انه المعروف بابن الدبيثي عميد الدين ابو العباس ابن عم الحافظ المؤرخ جمال الدين محمد بن سعيد الشافعي ، كان أديباً شاعراً له نظم ونثر في الأخبار والسيرة وعنده كتب جيدة ، شرح قصيدة المعري في ثلاث مجلدات وتوفي سنة « ٦٢١ » هـ .

على قول الامامية والزيدية والبغداديين كافة وكثير من البصريين من المعتزلة فالأمر ظاهر واما الباقون فعندهم ان اكثر المسلمين ثواباً ابو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، ولم يذهب ذاهب الى ان ثواب حمزة وجعفر اكثر من ثواب علي من جميع الفرق ، فقد ثبت الاجماع الذي ذكره النقيب اذا فسرنا الافضلية بالاكثرية ثواباً وهو التفسير الذي يقع الحجاج والجدال في اثباته لأحد الرجلين واما اذا فسرنا الافضلية بزيادة المناقب والخصائص وكثرة النصوص الدالة على التعظيم فمعلوم ان أحداً لايقارب علياً في ذلك لاجعفر ولاحمزة ولا غيرهما »

« ثم وقع بيدي بعد ذلك كتاب لشيخنا ابي جعفر الاسكافي ذكر فيه ان مذهب بشر بن المعتمر وابي موسى وجعفر بن مبشر وسائر قدماء البغداديين من المعتزلة ان افضل المسلمين علي بن ابي طالب ثم ابنه الحسن ثم ابنه الحسين ثم حمزة بن عبدالمطلب ثم جعفر بن ابي طالب ثم ابو بكر بن ابي قحافة ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان . قال ابو جعفر الاسكافي : والمراد بالأفضل اكرمهم عند الله واكثرهم ثواباً وارفعهم في دار الجزاء منزلة . ثم وقفت بعد ذلك على كتاب لشيخنا ابي عبدالله البصري يذكر فيه هذه المقالة وينسبها الى المعتزلة البغداديين ، قال : ان الشيخ أبا القاسم البلخي كان يقول بها

وقبله الشيخ ابو الحسين الخياط ، وهو شيخ المتأخرين من البغداديين قالوا كلهم بها ، فأعجبني هذا المذهب وسررت بأن ذهب الكثير من شيوخنا اليه ونظمته في الارجوزة التي شرحت فيها عقيدة المعتزلة (١) » .

١٦ ـ الوزير أبو القاسم المغربي

هو ابو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن محمد بن يوسف من ذرية بلاس بن بهرام جور وامه فاطمة بنت ابي عبدالله محمد بن ابراهيم بن جعفر النعماني صاحب الغيبة ، وكان صديق ابي العلاء المعري وأديب زمانه وسائس عصره وداهية أيامه ، توفي منتصف شهر رمضان سنة « ٤١٨ » . وجرت له وعليه أحداث بالعراق .

قال ابن ابي الحديد « وحدثني ابو جعفر يحيى بن محمد بن ابي زيد العلوي نقيب البصرة . قال : لما قدم ابو القاسم الحسين بن علي المغربي من مصر الى بغداد ، استكتبه مشرف الدولة ابو علي بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه ـ وهو يومئذ سلطان الحضرة « بغداد » وأمير الامراء بها ـ والقادر بالله خليفة ، ففسدت

(١) شرح النهج « ج ٣ ، ص ٣٨ ـ ٤٠ » .

الحال بينه وبين القادر واتفق لأبي القاسم المغربي اعداء سوء أوحشوا القادر منه وأوهموه انه مع مشرف الدولة في (عزم) القبض عليه وخلعه من الخلافة، فأطلق لسانه في ذكره بالقبيح وواصل القول فيه، والشكوى منه ونسبه الى الرفض وسب السلف والى كفران النعمة وانه هرب من يد الحاكم صاحب مصر بعد احسانه اليه. قال النقيب: فأما الرفض فنعم وأما احسان الحاكم اليه فلا، كان الحاكم قتل اباه وعمه وأخاً من اخوته (١) وافلت منه ابو القاسم بجريعة الذقن (٢)، ولوظفر به لألحقه بهم. وكان ابو القاسم المغربي ينسب في الأزد ويتعصب لقحطان على عدنان وللأنصار على قريش وكان غالياً في ذلك مع تشيعه وكان أديباً فاضلاً شاعراً مترسلاً كثير الفنون عالماً. وانحدر مع مشرف الدولة الى واسط فاتفق ان حصل بيد القادر بالله كتاب بخطه شبه مجموع قد جمعه من خطبه وشعره وكلامه مسوداً، أنحف القادر به بعض من كان يشنأ أبا القاسم ويريد كيده، فوجد

(١) نقول: انه هرب منه بعد ان فتر أباه وعمه وأخويه في الثالث من ذي القعدة سنة «٤٠٠» هـ كما وفيات الأعيان لابن خلكان «ج ١، ص ١٧١ ـ ٣» من طبعة العجم، ولم يقف الدكتور طه حسين في «ذكرى ابي العلاء» على تاريخ قتلهم وظنه مجهولا مع انه مذكور في الوفيات كما قدمنا.

(٢) الجريعة تصغير الجرعة ومعنى ذلك «هرب بحشاشة نفسه».

القادر في ذلك المجموع قصيدة (١) من شعره فيها تعصب شديد للأنصار على المهاجرين حتى خرج الى نوع من الالحاد والزندقة، لافراط غلوه وفيها تصريح بالرفض مع ذلك، فوجدها القادر ثمرة الغراب، وابرزها الى ديوان الخلافة، فقرىء المجموع والقصيدة بمحضر من اعيان الناس من الاشراف والقضاة والمعدلين والفقهاء وشهد اكثرهم انه خطه وانهم يعرفونه كما يعرفون وجهه، وأمر بمكاتبة مشرف الدولة بذلك، قالى ان وصل الكتاب الى مشرف الدولة بما جرى اتصل الخبر بابي القاسم قبل وصول الكتاب الى مشرف الدولة فهرب ليلاً ومعه بعض غلمانه وجارية كان يهواها ويتحظاها ومضى الى البطيحة ثم منها الى الموصل ثم الى الشام ومات في طريقه فأوصى ان تحمل جثته الى مشهد علي، فحملت في تابوت ومعها خفراء العرب حتى دفن بالمشهد بالقرب من الامام».

قال ابن ابي الحديد: وكنت برهة اسأل النقيب أبا جعفر عن القصيدة وهو يدافعني بها حتى املاها علي بعد حين وقد اوردت

---

(١) قال ابن ابي الحديد في موضع آخر «وكان الوزير يتبرأ من الشعر ويجحده وقيل انه وجد بخطه في مسودة رفعت الى القادر» «شرح النهج ج ٤ ص ٥٠٧».

هنا بعضها لاني لم استجز ولم استحل ايرادها على وجهها ، فمن جملتها ـ وهو يذكر في اولها رسول الله (ص) ويقول انه لولا الانصار لم تستقم لدعوته دعامة ولا ارسيت له قاعدة في ابيات فاحشة كرهنا ذكرها : ـ

نحن الذين بنا استجار فلم يضع ... فينا واصبح في اعز جوار
بسيوفنا امست سخينة (١) بركا ... في بدرها كنحائر الجزار
ولنحن في احد سمحنا دونه ... بنفوسنا للموت خوف العار
فنجا بمهجته ولولا ذبنا ... عنه تذشب في مخالب ضار
وحمية السعدين بل بحماية السـ ... ـعدين يوم الجحفل الجرار
في الخندق المشهور اذ القى بها ... بيد ورام دفاعها بثمار
قالا معاذ الله ان هضيمة ... لم نعطها في سالف الاعصار
ما عندنا الا السيوف واقبلا ... نحو الحتوف بها بدار بدار
ولنا بيوم حنين آثار متى ... تذكر فهن كرائم الآثار
لما تصدع جمعه فغدا بنا ... مستصرخاً بعقيرة وجؤار
عطفت عليه كما تنا فتحصنت ... منا جموع هوازن بفرار
وقدته من ابناء قيلة عصبة ... شروى النقير وحمة النقار

(١) سخينة هي قبيلة قريش وكانت تنبز بهذا اللقب .

أفنحن اولى بالخلافة بعده ... ام عبد تيم حامل الأوزار ؟
ما الامر الا أمرنا وبسعدنا ... زفت عروس الملك غير نوار
لكنها حسد النفوس وشحها ... وتذكر الاذحال والاوتار
افضى الى هرج ومرج فانبرت ... عشواء خابطة بغير نهار
وتداولتها أربع لولا ابو ... حسن لقلت لؤمت من استار
من عاجز ضرع ومن ذي غلظة ... جاف ومن ذي لوثة خوار
ثم ارتدى المحروم فضل ردائها ... فغلت مراجل احنة ونفار
فتأكلت تلك الجدى وتلمظت ... تلك الظبي ورقا اجيج النار
تالله لو ألقوا اليه زمامها ... لمشى بهم شحجى بغير مهار
ولو انها حلت بساحة مجده ... بادى بدا سكنت بدار قرار
هو كالنبي فضيلة لكن ذا ... من حظه كاس وهذا عاري
والفضل ليس بنافع أربابه ... الا بسعدة من الأقدار
ثم امتطاها عبد شمس فاغتدت ... هزوا وبدل ربحها بخسار
وتنقلت في عصبة اموية ... ليسوا باطهار ولا أبرار
ما بين مأفون الى متزندق ... ومداهن ومضعف وحمار

فهذه الأبيات هي لطيف القصيدة ، التقطناها وحذفنا الفاحش وفي الملتقط المذكور ايضاً مالا يجوز وهو قوله « نحن الدين بنا استجار »

وقوله « التي بها بيد » وقوله « فنجا بمهجته » البيت وقوله عن ابي بكر « عبد تيم » وقوله « لولا علي لقلت في الأربعة إنهم استار لؤم » . وذكره الثلاثة بما ذكرهم ونسبهم اليه (١) وفي الشعر تصحيف .

١٧ ـ كأن الأبيات قيلت في الحسين

وعقد ابن ابي الحديد فصلاً في إباء الاباة والأشعار الواردة فيه، قال : سمعت ابن ابي زيد يحيى العلوي البصري يقول « كأن ابيات ابي تمام في محمد بن حميد الطائي ما قيلت الا في الحسين (ع) :

وقد كان فوت الموت سهلا فرده ... اليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف الضيم حتى كأنه ... هو الكفر يوم الروع اودونه الكفر
فاثبت في مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت اخمصك الحشر
تردى ثياب الموت حمراً فما اتى ... لها الليل إلا وهي من سندس خضر (٢)

١٨ ـ النابغة الذبياني أشعرهم

وتطرق ابن ابي الحديد في شرحه الى التفضيل بين الشعراء ونقل من كتاب « طبقات الشعراء » قول محمد بن سلام مؤلفها « وقال من

---

(١) شرح النهج « ج ٢ ، ص ٦ ـ ٧ » .
(٢) المرجع المذكور « ج ١ ، ص ٣٠٢ » .

احتج للنابغة : كان احسنهم ديباجة شعرو اكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتاً ، كأن شعره كلام ، ليس بتكلف ، والمنطق على المتكلم اوسع منه على الشاعر ، لأن الشاعر يحتاج الى البناء والعروض والقوافي ، والمتكلم مطلق يتخير الكلام كيف شاء ، قالوا : والنابغة نبغ بالشعر بعد ان احتنك وهلك قبل ان يهتر » .

قال ابن ابي الحديد : وكان ابو جعفر يحيى بن محمد بن ابي زيد العلوي البصري يفضل النابغة ، واستقرأني يوماً ، وبيدي ديوان النابغة ، قصيدته التي يمدح بها النعمان بن المنذر ويذكر مرضه ويعتذر اليه مما كان اتهم به وقذفه به اعداؤه وأولها :

كتمتك ليلا بالجمومين ساهراً ... وهمين هما مستكناً وظاهرا
أحاديث نفس تشتكي ما يريبها ... وورد هموم لو يجدن مصادرا
تكلفني أن يغفل الدهر همها ... وهل وجدت قبلي على الدهر ناصرا (١)
ألم تر خير الناس أصبح نعشه ... على فتية (٢) قد جاوز الحي سائرا (٣)

---

(١) قال في الاصل « يقول : هذه النفس تكلفني ان لا يحدث الدهر هماً ولا حزناً وذلك مما لم يستطعه احد قبلي » .

(٢) قال في الاصل « كان الملك منهم اذا مرض حمل على نعش وطيف به على اكتاف الرجال بين الحيرة والخورنق والنجف ينزهونه » .

(٣) في رواية « فئة » .

ونحن لديه نسأل الله خلده ... يرد لنا ملكاً وللأرض عامرا
فنحن نرجي الخير ان فاز قدحنا ... ونرهب قدح الدهر ان جاء قامرا
لك الخير ان وارث بك الارض واحداً ... وأصبح جد الناس بعدك (١) عاثرا
وردت مطايا الراغبين وعريت ... جيادك لا يحفى لها الدهر حافرا
رأيتك ترعاني بعين بصيرة ... وتبعث حراساً علي وناظرا
وذلك من قول أتاك أقوله ... ومن دس أعداء (٢) اليك المآبرا
فيا ليت لا آتيك إن كنت مجرماً (٣) ... ولا أبتغي جاراً سواك مجاورا
فأهلي فداء لامرىء ان أتيته ... تقبل معروفي وسد المفاقرا
سأربط (٤) كلبي ان يريبك نبحه ... وان كنت أرعى مسحلان وحامرا
وحلت بيوتي في يفاع ممنع ... تخال به راعي الحمولة طائرا
تزل الرعول العصم عن قذفاته ... وتضحي ذراه بالسحاب كوافرا (٥)
حذاراً على أن لا تنال مقادتي ... ولا نسوتي حتى يمتن حرائرا

---

(١) في رواية « يظلع » .
(٢) في رواية « أعدائي » .
(٣) في الأصل « أي لا آتيك حتى يثبت عندك اني غير مجرم » .
(٤) في رواية « سأحكم » قال « أي سأمسك لساني عن هجائك وان كنت بالشام في هذين الوادين البعيدين عنك » .
(٥) يقول « أنا لا أهجوك وان كنت من المنعة والعصمة على هذه الصفة » .

أقول وقد شطت بي الدار عنكم إذا ما لقيت من معد مسافرا
ألا أبلغ النعمان حيث لقيته فأهدى له الله الغيوث البواكرا
وأصحبه (١) فلجاً ولا زال كعبه على كل من عادى من الناس ظاهرا
ورب عليه الله أحسن صنعه وكان له على المعادين ناصرا

قال ابن أبي الحديد : فجعل أبو جعفر (رح) يهتز ويطرب ثم قال « والله لو مزجت هذه بشعر البحتري لكادت تمتزج لسهولتها وسلامة ألفاظها وما عليها من الديباجة والرونق . من يقول ان امرأ القيس وزهيراً أشعر من هذا ؟ هلموا فليحا كموني (٢) » .

هذا آخر ما جمعناه من أقوال الشريف شرف الدين يحيى بن محمد ابن ابي زيد البصري النقيب ، وقد تركنا من أقواله ما لم نر فائدة في اثباته وهو قليل جداً بل هو لا يبلغ أن يوصف بالقليل، وهذه الأقوال تصور لنا وجها من وجوه الثقافة العربية الاسلامية العراقية في عصر مضى من العصور الزاهرة بالعراق .

---

(١) في رواية « وصحبه » .
(٢) شرح النهج « ج ١ ، ص ٥٠١ - ٥٠٢ » .

حديث الشهر

سلسلة تربط بين الماضي والحاضر وتمزج بين القديم والحديث .

« شهرية تعالج شتى المواضيع بأقلام حرة تمثل الأدب الحي الرفيع والرأي المجرد الحر .

يصدرها

عبد الأمير البيتي

باشراف

جماعة من أعلام المفكرين

الثمن : ٨٠ فلساً في العراق

١٠٠ « أو ما يعادلها في الخارج

جميع المراجعات مع

عبر الأثير السيني ـ الكاظمية

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 072549148
(NEC)
BP80
.I26
J393
1950